عازف الليل

اسم الكتاب: **عازف الليل**

اسم المؤلف: **علي صالح**

تدقيق لغوي: **مؤسسة العماد**

تصميم الغلاف: **يوسف السيد**

الإخراج الداخلي: **ساندي شريف إبراهيم**

رقم الإيداع: **2022/3386**

الترقيم الدولي: **978-977-6937-76-5**

جميع الحقوق محفوظة ©

أى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية والآراء والمادة الواردة.
وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

darerteqaa@gmail.com

+201029303589

علي صالح

عازف الليل

ارتقاء للنشر الدولي والتوزيع

إهداء

إلى المهمّشين الذين تعلَّقت أرواحهم بالأمل وما زالوا يبتسمون...

مقدمة

حين كنت طفلًا تمنيت أن يعطيني أحدهم قطارًا في عيد ميلادي، دائمًا ما أحببت القطارات والطائرات، وحين اقتحمت العشرين من عمري وقفت على محطة القطار نادمًا على ما تمنيت؛ فلقد علمت أن القطارات تجلب الفراق، وتقطع المسافات بيننا وبين ما نريد، وتمنيت أن يعود الزمن ليوم ميلادي السابع؛ لأطلب من أحدهم أن يهدم كل قطارات العالم.

بعضهم يفقد عقله ويصبح روحًا وهو المجنون

بعضهم يفقد روحه ويصبح عقلًا وهو المثقف

بعضهم يفقد الاثنين وهو المقبول اجتماعيًّا

هنري تشارلز بوكوفسكي

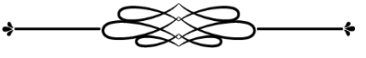

الفصل الأول

"الغريب"

شتاء عام ٢٠١٨

السابعة صباحًا

كان النهار باردًا، دائمًا ما تكون أيام الشتاء معتمة وباردة في الإسكندرية، تحمل في داخلها مشاعر تشبه ليالي باريس في الشتاء، وكانت شروق تقف في شرفة منزلها التي تطل على الطريق والبحر مباشرةً، تسترجع ذكرياتها حين كانت في السابعة من العمر وتتذكر حين كان والدها في كامل صحته وقبل أن يصاب بالسرطان منذُ عامين، تذكرت حين كانت تسمع صوت بيانولا عم سلامة تصدر من أسفل الشرفة، وتذكرت سليم ذلك الشاب الذي كان يكبرها بسنة دراسية ولكنها كانت تلعب معه، وأخذت تتذكر وتتذكر حتى غرقت في نهر من الذكريات، حتى أفاقت على صوت والدها الذي يخبرها أنها تأخرت على العمل فتترك من يدها كوب النسكافيه على الشرفة وتلتف لتقبله على خده وتغادر المنزل في طريقها إلى العمل.

شروق فتاة في العشرين من عمرها تحمل ملامح الأطفال وفي داخلها لا تختلف كثيرًا عن سندريلا الحكايات، تلك القصة التي تحكي عن فتاة فقيرة سيطرت زوجة أبيها على ممتلكاتها واستعبدتها، مع اختلاف بسيط عن القصة ولكنها تتفق مع سندريلا في السعادة، فعلى الرغم من المشكلات التي تحيط بشروق تظل سعيدة إلى درجة تكاد تكون هستيرية وتعيش حياة طبيعية للغاية، فهي تعمل منذُ أن أصيب والدها بالسرطان لتوفر مصاريف العلاج له وما يحتاج إليه المنزل، وهي تعمل في مكتب عقارات يبعد عن المنزل نحو مئة متر فلا تحتاج إلى ركوب المواصلات، غير أنها تستمتع بالنظر إلى البحر وهي ذاهبة إلى العمل، ولكنها اعتادت على روتين واحد طوال عامين، فبمجرد خروجها من المنزل تضع سماعات الأذن وتستمع إلى موسيقى الكمان وتسير وهي ناظرة إلى البحر حتى تصل إلى العمل، فلم يكن لديها أصدقاء سوى البحر والموسيقى وعم سلامة وياسمين زميلتها في العمل، كانت الحياة بالنسبة إلى شروق عبارة عن روتين يتكرر يوميًّا وعن تجارب تسمعها من ياسمين ولكنها لم تمارسها قط وعن نصائح دائمًا ما تصدر من ذلك العجوز المضحك المفعم بالخبرة والحكمة وهو عم سلامة...

في صباح ذلك اليوم وضعت شروق سماعات الأذن ورفعت الصوت إلى أقصى درجة مستمعة إلى موسيقى الكمان الرائعة من عزف سامفيل يرفينيان ومرت بعم سلامة لتلقي عليه السلام كما اعتادت

قالت شروق:

- صباح الخير يا عجوز، وهي تبتسم وتمد يدها لتنزع إحدى السماعات

فرد عليها عم سلامة ضاحكًا:

- صباح النور يا سندريلا، عارفة يا شروق وانا في سنك كده كنت واد مسبسب كده وكنت طايش زي موج البحر ده.

- طب ما انت لسه مسبسب، ولسه البيانولا بتاعتك بتخطف الروح.

- يا بكاشة، طول عمرك بكاشة، ربنا يستر طريقك ويحافظ عليكي يا بنتي.

تبتسم شروق في خجل وتضع سماعة الأذن وتنظر إلى البحر وتسير في اتجاه العمل، وما هي إلا خطوات حتى وجدت ذلك الغريب جالسًا مكانه يعتلي الصخرة نفسها وفي يده السيجارة نفسها وما زال يحدق في البحر في حزن شديد، كانت شروق قد رأته في المكان نفسه بالأمس وأول أمس، ولم يتغير الحال كثيرًا عن أول مرة لاحظت شروق فيها وجود ذلك الغريب، هي من أطلقت عليه ذلك الاسم في خيالها فمنذُ اللحظة الأولى التي شاهدت فيها ذلك الشاب وهي تعرف أنه مختلف عن باقي الجالسين على البحر فهو لا يتحرك كثيرًا سوى لإشعال سيجارة أو لأخذ نفسٍ منها، ودون ذلك يبقى ثابتًا يحدق في البحر ويداه ممدودتان على الصخرة وهو جالس، وكما فعلت في المرة الأولى ظلت شروق تسير وهي تنظر إليه حتى انتهى بها المطاف إلى نهاية

الشارع، استغرقت شروق ثلاث دقائق لتصل إلى نهاية الشارع وفي تلك المدة لم يتحرك الغريب مرةً واحدةً تقريبًا وظل ثابتًا كالمانيكان...

دخلت شروق مكان العمل وكل ما يدور في خاطرها هو ذلك الشاب الغريب، وسألت نفسها: أيُعقل أن يظل إنسان جالسًا في المكان نفسه مدة ٤٨ ساعة دون أن يتحرك؟! ما الذي يدفع شابًا في مثل عمره إلى حافة اليأس؟ فهو يبدو عليه التعب والإرهاق، وعلى الرغم من ملامحه التي تشير إلى العشرينيات فإنه يحمل في تفاصيل وجهه نظرة العجائز، ثم قالت في داخلها: مهما يكن ذلك الشخص فالأمر برمته لا يعنيني، وأكملت طريقها إلى داخل المكتب، لم يكن مكتب العقارات ذلك شركة كبيرة أو صرحًا هائلًا، ولم يكن يعمل به سوى ثلاثة أشخاص، ومالكه الأستاذ معتز مدير المكتب، فكان عبارة عن بناية من طابقين، في الطابق الأول مكتب العقارات مكون من غرفتين، غرفة بها مكتب الأستاذ معتز، وقد علَّق على جدرانها لوحات سريالية وبعض لوحات الزهور والغرفة الأخرى كانت تحتوي على ثلاثة مكاتب وبعض اللوحات الفنية؛ نظرًا إلى شغف الأستاذ معتز الشديد بالرسومات، وعُلِّقت أيضًا ساعة حائط كبيرة أمام المكاتب الثلاثة، وفي الطابق الثاني توجد إحدى العيادات الطبية، وتحيط بالبناية حديقة صغيرة ويقع المبنى على الناحية الأخرى من البحر حيث يفصل بينه وبين البحر الطريق، دخلت شروق إلى غرفة المكاتب الثلاثة ونظرت إلى مكتبها لتجد كوب نسكافيه ووردةً بيضاء قد وُضِعا على مكتبها، نظرت شروق إلى البخار المتصاعد من كوب النسكافيه وهي تبتسم فلطالما رأت

ذلك المشهد على مدار سنوات عملها في المكتب، فأمسكت بالوردة وأخذت تشم رائحتها ثم فتحت درج المكتب ووضعت الوردة إلى جانب العديد من الورود الأخرى داخل الدرج وأغلقت الدرج، ثم أمسكت بكوب النسكافيه واحتست منه بعض القطرات القليلة ثم سمعت صوتًا آتيًا من النافذة يقول:

- سكر زيادة زي ما بتحبيه.

فابتسمت شروق وردت قائلة النسكافيه ولا الوردة، وتلتف لتنظر إلى أحمد زميلها في العمل، ذلك الشاب الأنيق المثقف الذي اعتادت منه على كل ما هو جميل؛ فدائمًا ما يذهب إلى العمل قبلها ويعد لها كوب النسكافيه ويضع لها الوردة على المكتب، وظل يفعل ذلك على مدار عامين كاملين دون أن يمل حتى وإن لم يتلقَّ منها ردة فعل غير تلك المعتادة؛ فهو يحبها جدًّا ويحارب من أجل أن ينال إعجابها، تنظر إليه شروق وتقول:

- النسكافيه ولا الوردة اللي سكر زيادة يا أحمد.

فيرد من دون تردد أو تفكير وهو مبتسم

- إنتي.

فيداعب الخجل وجه شروق، ويحمر وجهها فتحاول أن تداري ما سمعته فتخبره أن ما يفعله كثير، وأنها لا تريد أن تكون مصدر تعب أو إزعاج له، هي تعلم جيدًا في داخلها أنه يهواها فهي تذكر ردة فعله حين علم أنها تحب الكمان فقد ذهب ليتعلمها من أجلها وتذكر له العديد

من المواقف التي تبين ذلك الحب، لكنها لا تستطيع.. لا تستطيع أن تبادله الشعور نفسه فعلى الرغم من سعادتها الدائمة والابتسامة البرَّاقة التي تسيطر على وجهها لكنها تعلم جيدًا أنه من الصعب على فتاة في مثل ظروفها أن تحب أو ترتبط بشخص؛ ولذلك فقد قررت شروق منذُ مرض والدها أنها لن تتقرب من أي شاب أو تدخل في تلك التجارب التي تسيطر على معظم فتيات جيلها، يعود أحمد ليقاطع ذلك الشرود...

_أنا امبارح حفظت أول لحن بالكمانجا وبقيت حد جامد فيها كمان، تصدقي!! دا سليم سحاب شخصيًّا عرض عليا إني أشتغل معاه بس انا رفضت، لإن طموحي أكبر من كده، يا إما ياني يا إما بلاش.

تضحك شروق وتقول:

- ياني حتة واحدة!

- بصراحة.. أنا كداب، أنا حمار في العزف ع البتاعة دي بس هتعلمها بردو.

- يا سلام!! وليه بقى الإصرار ده؟!

- عشانك... قصدي عشان بحبها.

تبتسم شروق وتحتسي رشفة أخرى من النسكافيه محاولةً إخفاء خجلها ثم تنظر إلى الساعة وتخبره بأن ياسمين قد تأخرت، فيرد عليها بأنه اعتاد على ذلك كما أن الأستاذ معتز أيضًا اعتاد على تأخر ياسمين، ويجلسا إلى مكتبيهما وتبدأ شروق بقراءة بعض أوراق العمل، وبعد

لحظات تدخل ياسمين إلى المكتب ترتدي بنطالًا أسود وقميصًا أبيض وتربط شعرها إلى الأعلى وتعلو وجهها ابتسامة عريضة تشبه كثيرًا موظفات البنوك حديثات التخرج، وعلى الرغم من أنها دائمًا ما ترتدي أزياء رسميةً مخصصةً للرجال، تضيف هذه الأزياء دائمًا إلى جمالها أنوثةً طاغيةً، تدخل وهي تحمل بعض الأوراق في يدها وتلقي التحية على الجميع وتجلس إلى مكتبها وترتدي النظارة التي تتركها دائمًا على المكتب وتمسك بقلم رصاص اعتادت على مسكه بين أصابعها وتنظر إلى الأوراق أمامها ثم تسترق النظر من حين إلى آخر إلى أحمد الذي لا يكفُّ عن النظر إلى شروق، وينكب الجميع على العمل فمنهم من يجري اتصالًا مع أحد العملاء ومنهم من يرسل بعض الصور عبر الحاسوب إلى أحد العملاء، ويبدو اليوم روتينيًّا كغيره، في منتصف اليوم يجلس أحمد على كرسي أمام النافذة وينظر إلى الخارج، ويتمنى لو كانت شروق تبادله الشعور نفسه، بينما تجلس ياسمين على كرسي أمام مكتب شروق وبين أصابعها القلم الرصاص المعتاد وعلى فخذيها بعض الأوراق داخل ملف، وتجلس شروق أمامها وتتبادلان الحديث كما اعتادتا أن تقضيا وقت الراحة دائمًا، تقول ياسمين:

– قوليلي بقى، شوفتي اللهو الخفي بتاعك ده تاني النهارده ولا لأ!!

ترد شروق:

– آه شوفته، أنا مش فاهمة البني آدم ده معندوش بيت يروحه ولا شغل ولا أي حاجة كده خالص!!

- إنتي يا بنتي مش قولتيلي إن هدومه بتتغير كل يوم.

- ترد شروق.. أيوه بيكون لابس حاجة مختلفة بس مش عارفة.

- إوعي يكون بيتهيألك يا شروق.

- بيتهيألي إيه إنتي كمان بقولك بقاله ٣ أيام قاعد في نفس المكان مبيتحركش حتى.

- بصراحة هي حاجة تشد، طب ما تجربي تتكلمي معاه!!

- إنتي اتجننتي! أكيد لا، هو أنا أعرفه أصلًا عشان اتكلم معاه!

- خلاص يبقى سيبك منه خالص.

_هو أصلًا مش في دماغي، إنتي اللي فكرتيني بيه لما سألتي.

قالت تلك الجملة ثم نظرت إلى الساعة على الحائط وأخبرت ياسمين أن عليهما العودة إلى العمل لإكمال باقي صفقات البيع قبل أن ينتهي يوم العمل، وبينما هي جالسة وغارقة في العمل، مرت في تفكيرها صورة ذلك الشاب الغريب الجالس على الصخرة، وأخذت تتخيل ملامحه السمراء ولحيته متوسطة الطول وذلك الشعر الأسود الذي يزين رأسه، وانغمرت في التفكير حتى إنها لم تلاحظ أن ساعات العمل قد انتهت وأن ياسمين تقف أمام المكتب تناديها كي ترحلا، وكالعادة حين خرجتا من المكتب أخذ أحمد يحاول المحاولة اليائسة نفسها التي لم يمل من تكرارها لعامين ويطرح السؤال نفسه والذي لم يتلقَّ سوى إجابة واحدة عنه مدة عامين:

- تحبي أوصَّلك يا شروق؟

وكالعادة يرحل وهو يحمل الشعور نفسه الذي اعتاد عليه طوال عامين، يشعر كأنه جندي أُسِرَ في الحرب فلم يقاتل مع وطنه كما تمنى وحين تمكن من الهرب كانت الحرب قد انتهت، هكذا كان يشعر أحمد حينها، فيشير إلى ياسمين إشارة تعني أنهما ستسيران معًا، فترد: طبعًا، وتومئ بالموافقة وترحلان، ثم تضع شروق سماعة الأذن وتتجه إلى منزلها ويتردد في رأسها اللحن نفسه لسامفيل يرفينيان، وتنظر إلى البحر في الجهة الأخرى حتى تصل إلى المكان الذي يجلس فيه الغريب، فتنظر إليه لتجده جالسًا كما هو لم يتغير في المشهد شيء سوى الجالسين إلى جواره والمارين في الشارع وكأن ذلك الشخص فقد الإحساس بالزمن وكأنه قد أتى من عالم آخر بعيد عن عالمنا، ولا يوجد في ذلك العالم الخاص به سوى البحر والسيجارة وذلك الدخان المتصاعد إلى السماء الذي يشبه كثيرًا الأحلام التي لا تتحقق ولكنها تطفو كل لحظة في رأسنا، كان كل ذلك يدور في وجدان شروق عندما تعثرت وكادت أن تسقط فنظرت إلى قدميها لتجد أن رباط الحذاء لم يكن مربوطًا جيدًا فجلست إلى إحدى محطات الأتوبيس على الشارع لتربط الحذاء ولكنها حين نظرت إلى الشاب من تلك المحطة وجدت أن المحطة تعرض لها ملامح ذلك الشاب بصورة أوضح، فجلست تتأمل ملامحه في صمت شديد بينما تحجب السيارات المارة أمامها صورته مرة تلو الأخرى ثم تمر السيارات ويعود المشهد واضحًا كما كان، فتضغط على زر رفع الصوت في الهاتف لتحجب عن رأسها أصوات زحام الشارع وتبدلها بصوت الموسيقى، وبينما هي جالسة

تنظر إليه مد الغريب يده إلى جيب الجاكيت وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة وأخذ منها نفسًا عميقًا ونفخ الدخان إلى السماء ثم عاد إلى ثباته وكأنه دب في ألاسكا يتجهز لبياته الشتوي وأخذت هي الأخرى تشرد معه ولكنها تفكر في أمور أخرى غير تلك التي يفكر فيها، ففكرت في أحمد وما يفعله من أجلها وفي والدها ومرضه، وفي كلام عم سلامة عن الشباب وأنهم شياطين في هيئة بشر، وفي شعور ياسمين التي يظهر عليها علامات حبها الشديد لأحمد، وظلت غارقة في أنهار من الأفكار والأحداث وهي تنظر إلى ذلك الشاب الغريب الجالس أمامها الذي ظل شاردًا أيضًا حتى انتفض فجأة وكأن أفعى مامبا لدغته وألقى بما تبقى من السيجارة التي انتهت ولسعت يده؛ ولأن شروق كانت تنظر إليه في انتباه انتفضت هي الأخرى على إثر انتفاضته وأخذت خطواتها تتسارع وأخذت أنفاسها تتعالى وشعرت كأن العالم توقف للحظة، لم تكن خائفة ولكن شعور الشفقة كان هو المسيطر عليها في تلك اللحظة، وأخذت تسأل نفسها، ما الحدث الذي يجعل شابًا في مثل عمره فاقدًا الإحساس بالزمن متخليًا عن الشعور؟! كيف له أن ينسى حتى السيجارة التي تجعله يتنفس بين الحين والآخر؟! قالت في نفسها: هناك ما جعل من ذلك الشاب ما هو عليه، وفي تلك اللحظة تأكدت شروق من أن ذلك الشخص وطيفه لن يدعاها تسير كل يوم إلى جانبه في سلام، أحست أن هناك ما يربطهما ببعض وكأن الموسيقى التي تسمعها في رأسها نابعة من دخان سيجارة ذلك الشخص، كان التفكير في تلك

اللحظات يسيطر على كل حواسها ولأول مرة تمر بجوار عم سلامة من دون أن تلقي عليه السلام وتصعد إلى المنزل..

في تلك الليلة لم يستطع النوم أن يكسر قضبان التفكير التي تحيط بشروق، فلم تغفُ في تلك الليلة إلا دقائق معدودة ولم تكل من التفكير في ذلك الشاب الذي أطلقت عليه اسم الغريب، فأخذت ترسم له قصصًا وتحاول أن تجد سببًا لجلوسه أو لثباته الغريب الذي لم ترَ له مثيلًا من قبل، فعلى الرغم من أنها شخصية قوية إلى حدٍ ما لكنها في النهاية تظل فتاة في مقتبل العمر لها مشاعر ولها قلب ينبض كباقي البشر، ونحن بني الإنسان دائمًا ما يحركنا الفضول، دائمًا ما ننجذب إلى غير العادي، نتقرب من الأشخاص المختلفين حتى نعرفهم جيدًا ويصبحوا عاديين وبمجرد أن يحدث ذلك نبدأ رحلة البحث عن الاختلاف هكذا خلقنا في الأساس، وهكذا نحيا وهكذا سنموت، ولكنها لم تكن تمتلك الحكمة الكافية لتعرف أنه مجرد شخص لا تعنيه سوى همومه ومشكلاته، وأنها حين تفكر فيه من الأكيد أنه يفكر في أشخاص آخرين؛ فهو لا يعرفها وهي لا تعرفه ولا يربطهما شيء، ولكنها على الرغم من تلك الحقيقة ما زالت ابنة العشرين التي يحركها الفضول ليس إلا، وبعد صراع شرس بينها وبين صورة ذلك الشخص استسلمت للنوم، أو بمعنى أوضح نجح النوم أخيرًا في تسديد ضربة قاضية إلى قضبان التفكير فغرقت في نوم أشبه بسقوط شخص مغشي عليه.

وفي صباح اليوم التالي استيقظت شروق في تمام السادسة صباحًا وأخذت تتناول الفطور مع والدها في شرفة المنزل، وكما هو معتاد أخذ فؤاد والد شروق يتحدث عن عمله حين كان ممرضًا في إحدى المصحَّات النفسية وعن الحالات التي تعامل معها، وكالعادة أخذ يذكر اسم تشخيص بعض الأمراض التي لم تستطع شروق حفظ أيٍ منها، ولكنها قررت أن تسأل عن الاكتئاب، فتعجب والدها من السؤال ومِن سببه، فأخبرته بأنها تشعر بالفضول تجاه تلك الكلمة فلقد سمعتها في الأغاني وفي بعض الأفلام وحتى إنه هو ذكرها مرة في كلامه، وأخذت تنظر إليه في حماس منتظرة أن تستمع إلى إجابة، ولكن قبل أن يجيب سمع صوت أحدهم يطرق الباب، ففرحت شروق فهي تعلم جيدًا أن صاحب تلك الزيارات المبكرة هو عم سلامة ولم تستبعد أن يكون والدها هو من دعاه ليتناول معهما الفطور فكثيرًا ما يفعل ذلك خصوصًا بعد وفاة ابنته وزوجته، وبالفعل ينضم إليهما عم سلامة فيتحدث إليه فؤاد قائلًا:

- شروق كانت بتسأل عن معنى الاكتئاب يا سلامة.

يبتسم ثم يقول:

- عايزة تسمعي تشخيص علمي ولا عايزة تفهمي معنى الكلمة!!

شروق مسرعة:

- الاتنين.

- التشخيص العلمي يرد عليه أبوكي هو خبرة في الموضوع ده، أما معناه بالنسبة للناس أقولك انا، الاكتئاب يا بنتي إن الشخص يحس بغربة في مكان هو في الأصل كان أكتر مكان بيحس فيه بالأمان، الاكتئاب هو الخسارة اللي الإنسان رافض يتقبلها ورافض يكمل من بعدها زي ما تقولي كده بيختار إن حياته تقف عند الخسارة دي، وعشان الحياة مبتقفش فبيقرر يعتزلها أحسن، زي مثلًا لو الساعة اللي في إيدك دي اتكسرت هل الزمن هيقف عند الناس؟! أكيد لا بس هتفضلي إنتي الوحيدة اللي حزينة إنها اتكسرت ومهما فضلت مكسورة هيفضل عمرك يكبر بردو وبمرور الوقت لا الساعة هترجع سليمة ولا عمرك هيبطل يجري، الاكتئاب ده يا بنتي هو موت الشغف تجاه كل شيء حتى أكتر الحاجات اللي كنا بنحبها بتبقى تقيلة على قلبنا وكأن العالم كله اتَّحد ضد شخص واحد، ويحس الشخص إنه مش موجود أو هو نفسه بيختار إنه ميبقاش موجود، بس ده مبيحصلش لناس كتير لأنه مرحلة صعبة ومش كل اللي بيكتئب بيقدر يعدي المرحلة دي

- طب والتشخيص العلمي يا بابا.

- التشخيص العلمي ميختلفش كتير عن اللي سلامة قاله؛ لأن الاكتئاب بالنسبة للطب النفسي يعتبر اضطراب المزاج اللي بيسبب حالة من الحزن الشديد وفقدان اللذة في كل شيء ونقص التركيز وعدم الاهتمام بأي شيء ونقص في تقدير الذات وغالبًا كل البشر بيعدوا بفترة اسمها الاكتئاب الموسمي ودي بيبقى فيها بردو نفس الأعراض لكن مبتقعدش أكتر من أسبوعين.

استمعت شروق إلى تلك الأجوبة وكل ما يجول في خاطرها أن ذلك الغريب يمتلك كل المواصفات وكأنه الحامل الأول للفيروس أو مؤسسه، ولذلك حاولت ألَّا تعطي الأمر اهتمامًا زائدًا، ولكن ذلك الفضول ما زال في داخلها فاستأذنت لتذهب إلى العمل، وبمجرد خروجها إلى الشارع تكرر المشهد، فوضعت السماعات وأخذت تمشي وتنظر إلى الجهة المقابلة وإلى البحر حتى وقعت عيناها على تلك الصخرة لتجد ذلك الشاب جالسًا من جديد يشعل سيجارته، بينما تلاحظ أن يديه ترتعشان ولكن ليست تلك الرعشة الناتجة عن البرد ولكنها تلك الرعشة التي تصاحب العجائز حين يتقدمون أكثر وأكثر في العمر، ولاحظت أيضًا أنه يمتلك هالات سوداء غريبة أسفل عينيه تشبه تلك الهالات التي يمتلكها الممثلون في أدوار الإدمان، وما هي إلا خطوات حتى وصلت إلى المحطة التي جلست فيها في اليوم السابق فقررت أن تجلس خمس دقائق لتراقبه، خمس دقائق لن تجعلها تتأخر عن العمل، حدثت نفسها بذلك ثم جلست، وكأنها اتخذت تلك المحطة نافذةً تطل منها على حياة ذلك الشاب أو كما تسميه هي الغريب.

كان المطر قد بدأ يهطل وكانت السيارات مسرعة وحمل الأسفلت بريقًا لامعًا وبدأ الناس في البحث عن مأوى يأويهم من الأمطار أما هو فظل كما هو ينظر إلى البحر وكأنه يلومه على شيء ما أو كأنه يحاوره في أمر ما، وكانت هي سندريلا حقًّا في تلك اللحظة، فلم تكن تدرك ما يجري حولها وكأن العالم قد انتهى، وكأن الحرب دمرت كل معالم

الحياة واختفى الجنس البشري عن الأرض ولم يبقَ سواها هي وهو فقط، مر الوقت سريعًا فلم تكن الخمس دقائق رحيمة بها بل مرت وكأنها آخر خمس دقائق في العالم سريعة وباردة كالإسكندرية في فصل الشتاء، وذهبت شروق إلى العمل لتضع الوردة إلى جانب جيش الورود التي فقدت لونها وبريقها وأصبحت محض رفات ورد، وعادت شروق إلى العمل وإلى الأرض وإلى العالم الذي كان قد دُمِّر منذُ قليل على تلك المحطة، وتكرر الروتين المعتاد حيث جلست إلى مكتبها بعد أن شكرت أحمد للمرة ٧٣٠ على الوردة والنسكافيه وكالعادة تأخرت ياسمين وظل أحمد يحدق في شروق وحين وصلت ياسمين ظلت تحدق في أحمد، وفي وقت الغداء أشعل أحمد سيجارته واقترب من النافذة يحدق في المجهول ويتمنى لو كانت شروق تبادله الشعور نفسه، وجلست ياسمين إلى جانب شروق، فتجلس على كرسي مقابل لمكتب شروق وتضع بعض الأوراق على فخذيها وكأنها تكتب بعض الأشياء فيما تتبادل الحوار مع شروق وتسألها السؤال نفسه، ولكن في تلك المرة كذبت شروق وقالت: إن الشاب الغريب الذي كان يجلس على الصخرة لم يكن موجودًا اليوم ولا حين غادرت العمل أمس، وظلت شروق تحدق في الساعة وكأنها تحاول أن تدفع العقارب إلى الأمام لينتهيَ يوم العمل وتذهب لرؤيته وتجلس على المحطة نفسها وتجعل الحرب تدمر العالم وتنتهي حياة الأرض ويختفي الجنس البشري وتبقى هي وهو يحدقان في البحر، كان ذلك ما يجول في ذهن شروق حتى دخل عليها الأستاذ معتز وهو شخص طويل القامة نحيف

البنيان أبيض البشرة، في عقده الخمسين، كان يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق زرقاء ويقف أمام شروق ويقول وهو يناول شروق قرصًا أبيض اللون:

- اتفضلي يا ستي برشامة الصداع اللي كنتي مصدعاني بيها.

ثم يعطي أحمد قرصًا، ثم يلقي التحية على الجميع، فيحيه الجميع ثم يغادر المكتب وتعود شروق إلى شرودها من جديد وينتهي الأمر باقتحام عقرب الساعة حصون الساعة الثالثة عصرًا، فتنهض شروق مسرعةً للخروج ويتعجب الجميع من ذلك...

يقف أحمد أمام سيارته في حزن ويشعل سيجارة ويتحدث إلى ياسمين في تعجب شديد:

- المفروض أعمل إيه عشان تحس بيا!

- انت عارف كويس يا أحمد إن شروق مش هتحب حد وإن ظروفها صعبة شوية وإنها مكملتش تعليمها بسبب باباها بس معلش اصبر عليها شوية يمكن تحس بيك، انت عارف الناس كلها كده محدش بيحس بإنسان بيحبه دايمًا واحد بيحب واللي بيتحب بيحب غيره.

- طب يلا نمشي يا أسامة يا منير، يقول ذلك وهو يضحك فتضحك ياسمين وتنظر إليه وتتنهد وتسير إلى جانبه، وفي الطريق يجلسان إلى إحدى رجات المباني، يضع أحمد أسطوانة موسيقى كُتب عليها أعمال سامفيل يرفينيان داخل جهاز تشغيل موسيقى صغير فتبتسم ياسمين ابتسامة يأس وتنظر إليه ثم إلى البحر...

أخذت شروق تسير وهي تضع سماعات الأذن وتنظر في اتجاه البحر لتجد الغريب جالسًا على الصخرة ويدخن سيجارته ويتطاير الدخان في الهواء، فأمعنت النظر في يديه محاولة البحث عن خاتم زواج أو خطبة ولكنها لم تجدْ شيئًا، فواصلت المشي حتى وصلت إلى المحطة وجلست تنظر إليه في تمعن، كانت الأمطار متوسطة الهطول وكانت الشوارع بالكاد فارغة كما كانت شروق من الداخل فارغةً تمامًا كطفل وُلد للتو من رحم أمه، وكانت السيارات مسرعة تحاول كل منها اجتياز الشارع والذهاب إلى المنزل، وفي تلك الأثناء رأت شروق طفلةً في العاشرة من العمر ترتدي بنطال جينز وتيشيرتًا أخضر، تمر من الجانب الذي تجلس فيه شروق عابرة الطريق نحو البحر، في تلك اللحظة جاءت سيارة مسرعة وصدمت الطفلة ففزعت شروق وتوقف السير كأن الناس خرجت من مخابئها، واجتمع الجميع حول الطفلة الغارقة في دمائها الممزوجة بالأمطار، كان صوت المكابح مرتفعًا جدًّا وصوت احتكاك العجلات بالأسفلت يشبه صوت صراخ الأطفال المرتفع جدًّا حتى إنه دفع صوت موسيقى سامفيل من رأس شروق، واحتل هو المشهد بالكامل في ظل الفوضى التي أحدثتها الحادثة ومجيء قوات الأمن والإسعاف وفي ظل صراخ والد الطفلة الذي كان يجثو على ركبتيه على الرغم من ضخامة جسده ويمتزج المشهد ببكاء شروق مكتوم الصوت، وكان الشاب الغامض جالسًا كما هو وكأنه لم يشعر بشيء، لم يحرك هواء الشتاء البارد شعرة من رأسه وكأنه من أولئك الذين تحدث عنهم عم سلامة في خطبته عن الاكتئاب، حاولت شروق

أن تتمالك أعصابها ومن ثم هرعت إلى المنزل، كان المشهد مشوَّشًا للغاية، وما زالت دموعها تسيل وجفونها رطبة، وأخذت تسير وتسير وكأن الطريق لا يفضي إلى نهاية، كأن المنزل تعمَّد الابتعاد عنها لكي تظل في حالة الفزع تلك؛ فدائمًا ما يكون المنزل مصدرًا للأمان والراحة، دائمًا ما كانت تقول أمي هذه العبارة حين كنت صغيرًا، وبعد السير والدموع والفزع، دخلت شروق المنزل وارتمت في أحضان أمها وأخبرتها بما حدث للطفلة وحاولت أمها أن تهوِّن عليها فأدخلتها إلى غرفتها وأخذت تجفف لها شعرها وملابسها من الأمطار، وحين كانت شروق جالسة على السرير وأمها تجفف شعرها نظرت إلى المرآه المقابلة لها وأخذت تعيد الموقف في ذاكرتها وتسأل نفسها!! ما الذي يحدث معها؟ هل الشخص الجالس على الصخرة حقيقي أم أنها اخترعته من خيالها؟! كيف يُعقل أن يحدث ما حدث ولا يتحرك! مَن مِن البشر لا يُصعق لأمر كهذا؟! أم أنه ليس بشرًا فماذا يكون إن لم يكن بشرًا؟! هل هو شبح أم طيف كالطفل المدعو كرو من رواية كافكا على الشاطئ التي كانت تقرؤها منذُ أيام، لم تستطع أن تجد تفسيرًا لما حدث، كان الوضع مزيجًا من الحزن والأسى على حال الطفلة وكذلك الشاب، لم تستطع تحمّل الصراع الدائر في رأسها فسقطت في نوم عميق يشبه ثبات الغريب على الصخرة...

في صباح اليوم التالي كانت شروق لا تزال تحمل جزءًا من الصدمة التي صاحبتها بالأمس، ولكن كان يجب عليها النهوض من الفراش والخروج إلى العمل، فكانت تقاتل للنهوض من الفراش، لا أعلم لماذا نحن البشر نلجأ إلى الفراش حين نتلقى الصدمات!! لماذا نشعر بالأمان في الفراش! فحين كنَّا صغارًا كنَّا نعتقد أن النوم هو العقاب الذي نناله حين نُخطئ وحين كبرنا اكتشفنا أن النوم مكافأة ننتظرها يوميًّا لندفن صراعاتنا أسفل الغطاء.

بعد عدة محاولات استطاعت شروق النهوض والخروج إلى الشرفة والنظر إلى البحر وعلى الرغم من الجو البارد لم تشعر شروق بالبرد بل شعرت بدفء يجذبها إلى المجهول، وكأن هذا الدفء نابع من البحر الذي تنظر إليه، فوقفت منتصبة القامة ناظرة إلى الشمس التي تخرج من رحم البحر، وتذكرت كلمات والدها عن ذلك المشهد، وأنه أعطاها ذلك الاسم نسبة إلى هذا المشهد فأسماها شروق..

وبعد لحظات شرود قليلة عزمت على أن ترتدي ملابسها وأن تخرج في يوم عمل جديد، وفور خروجها من المنزل اصطدمت بعم سلامة الذي كان يستعد لأن يعزف على آلة البيانولا خاصته، فابتسمت له شروق ابتسامة تُظهر فيها الأمل ولكن في داخلها تحمل الخوف والترقب، فابتسم هو أيضًا لها وألقت عليه التحية وأخذت تسير، كانت ترتدي فستانًا أزرق وحذاءً أسود ولم تربط شعرها؛ فأخذت نسمات الشتاء تراقص شعرها على ألحان كمان سامفيل وما هي إلا خطوات حتى نظرت إلى الصخرة لتجد ذلك الشاب جالسًا هناك يرتدي جاكيتًا أسود

طويلًا وبنطال جينز أسود وحذاءً أسود ويحمل بين أصابعه سيجارته المعتادة فجلست شروق إلى المحطة وأخذت تنظر إليه في تمعن وتركت نفسها تحلِّق مع طيور الفلمار، تلك الطيور التي تحلق فوق البحار، وفي تلك اللحظة نهض الغريب من مكانه وأمسك ببعض الأحجار الملقاة على الشاطئ وأخذ يلقيها واحدًا تلو الآخر في اتجاه البحر والتفَّ لينظر إلى الشارع والمارين، وللمرة الأولى ترى شروق كامل ملامحه فكان شابًا متوسط الطول أسمر البشرة غائر العينين نحيف البنيان يمتلك لحيةً متوسطة الطول، فأحست شروق كأنها ترتطم بالأرض فجأة وتنهدت بشدة، وفي أثناء ذلك شعرت بأنه يبحث عن شيء في الطريق، كانت عيناه تمسحان الشارع كرادار غواصة ألمانية في الحرب العالمية الثانية وفجأة اصطدمت عيناه بعيني شروق، فنظرت إليه مباشرةً في عينيه وارتجف كامل جسدها، أحست شروق بأن عينيه أعمق من البحر بكثير فحاولت الابتعاد عن نظره وأخذت تسير في اتجاه العمل ولكنها كانت تسير خطوتين وتنظر إلى الخلف في الجهة الموازية لها لتراه، في تلك الأثناء جلس الغريب مرة أخرى إلى الصخرة.

***

وصلت شروق إلى العمل وهي تحمل في داخلها مشاعر الفرحة والانتصار، وكأنها حققت أكبر إنجاز في الحياة، فأخذت تسأل نفسها: ما سبب هذا الشعور بالسعادة الذي يتملكها؟! لماذا أصبحت فجأة تهتم لأمره وكأنها تعرفه! وحين طرحت على نفسها ذلك السؤال أحست

بالحزن فهي في الحقيقة تذكرت أنها لا تعرفه وهو أيضًا لا يعرفها ولا يكترث لأمرها، فسألت نفسها: هل يمكن أن يكون قد لاحظها حين نظر إليها تلك النظرة العابرة التي لم تدم إلا لحظات بسيطة؟! احتل ذلك السؤال رأس شروق فدخلت إلى المكتب ونظرت إلى الوردة ثم إلى أحمد وسألته:

- أنا نفسي أعرف انت بتجيب كل الورد ده منين كل يوم؟

سألت ذلك السؤال لأن الورود التي كان يحضرها أحمد لم تكن تشبه تلك الورود التي تباع في محلات الزهور.

- إحنا يا ستي بنحب الورد جدًّا فبنزرعه عندنا في البيت، بس كده.

تذكرت شروق أن أحمد يسكن في منزل مكون من طابقين وحديقة صغيرة يشبه القصور الملكية أو المتاحف القديمة فلقد كان أحمد يحدِّثها بأمر ذلك المنزل كثيرًا، نظرت إليه وإلى ملابسه الأنيقة؛ فقد كان أحمد يرتدي قميصًا أزرق وبنطالًا أسود وحذاءً أسود لامعًا، لطالما كان يفضل ارتداء القمصان التي تشبه الملابس الرسمية مثله مثل ياسمين، فشردت مرة أخرى وقاطعها أحمد:

- ينفع بقى أسألك أنا سؤال؟

- طبعًا يا أحمد.

- إنتي بتسهري ليه كتير؟

- وانت عرفت منين إني بسهر؟

- أصل أنا باخد كورس الكمانجا قريب من بيتك وبخلص متأخر ولما بعدي من تحت بيتك بشوف نور أوضتك منور فعشان كده عرفت إنك بتسهري.

- يعني ساعات وساعات.

فأكمل أحمد حديثه وأخبرها بأنه دائمًا ما يمر من أسفل منزلها وأنه يمكنه أن يجلب لها أي شيء تريده في تلك الساعات المتأخرة من الوقت، فشكرته شروق وأخذت تحتسي كوب النسكافيه وهي تظهر عبر نافذة المكتب، وكان أحمد ينظر إليها ويشعر بسعادة غامرة فلأول مرة يتمكن من الحديث إليها بهذا الشكل ولتلك المدة فلقد مر على دخولها وإجراء الحديث معها أكثر من خمس دقائق، شعر بانتصار شديد كأنه فرس خيل استطاع إنهاء السباق في المركز الأول، هكذا نحن الرجال حين نحب نصبح مقاتلين وشعراء ورسامين ربما، ربما يتحول أي رجل إلى طفل صغير حين ينظر إلى عين حبيبته، تتساقط كل صفات الخشونة والغلظة واحدة تلو الأخرى حين نشعر بأننا نحب، أعتقد أن الله خلق الحب من أجل أن يذكرنا بحقيقتنا دائمًا؛ فالجميع يحب حتى السَّفَّاحين والقتلة يشعرون بالحب ويضعفون أمامه وينحني الجميع أمام الحب، كان ذلك ما يدور في ذهن أحمد في ذلك اليوم.

تأخرت ياسمين كعادتها وظلت شروق جالسة تعمل كعادتها، تجري اتصالات هاتفية مع العملاء وتشرح مزايا العقارات لديهم وتقرأ بعض الأوراق، حتى جاء وقت الغداء فجلست ياسمين أمام شروق مع القلم

الرصاص والأوراق وتلك العيون الزرقاء التي تمتلكها ياسمين وذلك القوام الممشوق والنهود البارزة، وأخذتا تتبادلان الحوار حول الغريب فأخبرتها شروق بما حدث وبالحادثة وأخذت تخبرها عن النظرة التي جعلتها تشعر بفراغ الكون وأخذت ياسمين تستمع وهي تبتسم ابتسامة خفيفة وتلتفت لتنظر إلى أحمد الذي كان يسمع ما تقوله شروق، فنظر إلى ياسمين نظرةً منكسرةً وحزينةً.

***

ومر الوقت سريعًا جدًّا حتى صارت الساعة الثالثة عصرًا وهم يتجهزون للرحيل فانتصبت ياسمين وسارت في اتجاه شروق وأعطتها أقراصًا بيضاء وأخبرتها بأنها أقراص الصداع التي دائمًا ما تطلبها من الأستاذ معتز فتناولتها شروق وارتشفت بعض الماء وشكرت ياسمين ثم أعطت أحمد أيضًا قرصًا وهي تبتسم له، وهمَّ الجميع بالرحيل، وتكررت المشاهد نفسها فذهب أحمد وياسمين معًا ورحلت شروق وهي تضع سماعات الأذن وتستمع إلى موسيقى الكمان وتسير في فرحة عارمة حتى جلست على المحطة وأخذت تنظر إلى الصخرة ولكنها كانت فارغةً فلم يكن الغريب موجودًا في تلك اللحظة، فنظرت شروق إلى ساعتها ونظرت إلى الصخرة وشعرت كأن هناك خطبًا ما، كأن الوقت لم يعد يمر، شعرت بأن كل المارين من أمامها ينظرون إليها وكأنها عارية الجسد ولأول مرة تشعر شروق ببرد شتاء الإسكندرية فكان الهواء يحطم عظامها، لم تكن تعلم لماذا تشعر بالخوف! ولماذا

لا تزال جالسة تنتظر مجيء شخص لا تعرف عنه أي شيء! كانت تحارب لكي تقف وكأن الجاذبية اتحدت ضدها، لم تستطع أن تغادر المحطة ظلت تنتظر وتنظر إلى الصخرة الفارغة، في تلك اللحظة تساقط المطر ومرت الدقائق ثقيلة وباردة على شروق حتى شارفت الساعة على الرابعة عصرًا فانتصبت وأخذت تسير في اتجاه المنزل ويسيطر عليها الإحساس بالحزن والخوف والوحدة.

لماذا نحن البشر نشعر بالهزيمة حين نفقد شخصًا ما؟ ما الذي يدفعنا إلى الشعور بأن العالم قد تغير وأن الحياة أصبحت فجأة من دون معنى؟ ما هذا الشعور بالوحدة، وما تلك الوحدة، ولماذا نشعر بها؟ ألم نكن قد وُلدنا بمفردنا في تلك الحياة ولم يكن لدينا سوى الأخوة والعائلة؟ لماذا إذن نشعر بالوحدة حين نفقد من نحب مع أننا نعلم جيدًا أننا سنموت بمفردنا أيضًا؟ لماذا تتوقف الحياة عند الحب والخسارة وتكون الأيام صعبةً وبطيئةً؟

***

انتهي الأمر بشروق في فراشها تنظر إلى السقف وتتسارع دقات قلبها وأنفاسها، تشعر بألم شديد في عظام رقبتها وكتفيها، ذلك الألم الذي يكاد يحطم تلك العظام النحيفة، ظلت شاردةً تنظر إلى الأعلى وتفكر في ذلك الشخص الذي لم تعرف له اسمًا بعدُ سوى الغريب، وتتساءل: أين هو؟ هل هو حيٌّ يُرزق أم مات في حادث سير مثل تلك الطفلة؟ وظلت تسأل نفسها مرارًا وتكرارًا أسئلة لم تستطع هي أن تجيب عنها،

كان الموقف أكبر من أنه شخص لا تعرفه، أصبحت متأكدةً من أن الأمر تجاوز الفضول وأنها تحب ذلك الشاب الذي لا تعرف اسمه، تحبه حقًّا بكل تفاصيله وتقلق لأمره وتتمنى لو كان معها الآن، وضعت شروق سماعات الأذن وأخذت تستمع إلى موسيقى الكمان وتنظر إلى السقف في يأس وحيرة حتى فقدت الإحساس بالعالم، تخيلت نفسها وهي تجلس على المحطة وتنظر إلى الغريب وهو يقف في اتجاه المحطة وينظر إليها وهي تنظر إلى عينيه، توقَّف التفكير بالنسبة إلى شروق عند ذلك المشهد وغطت في النوم.

في صباح اليوم التالي استيقظت شروق في تمام السادسة صباحًا وكل ما يدور في خاطرها هو النظرة التي رأت فيها ملامح الشاب كاملة فتلك النظرة هي كل الذكريات التي تمتلكها شروق بينها وبين ذلك الغريب، جلست إلى حافة السرير تنظر إلى المرآة أمامها وكانت عيناها رطبتين للغاية كأنها كانت تبكي في منامها، ولكن علامَ تبكي؟ على ذلك المتشرد الذي ليس له اسم، أم على أجمل أيام شبابها التي تضيع في العمل دون جدوى، أم على الوحدة التي تعانيها في حياتها؟ أخذت تلك الأفكار تتزاحم وتتشاجر في رأسها ولكنها تعلم جيدًا أنها لا تستطيع أن تترك مجالًا لتلك الأفكار حتى تسيطر عليها فيحدث لها مثلما حدث لريم صديقتها التي انتحرت منذُ عامين، كانت ريم في مثل سنها وعلى الرغم من أن الحياة كانت رحيمة جدًّا بريم استسلمت مع أول عقبة وقررت إنهاء حياتها من ارتفاع ستة طوابق، أيُمكن أن يكون لها المصير نفسه! ألا يوجد حلٌّ سوى السقوط من الشرفة وجعل الجاذبية تقوم

بباقي المهمة! لا.. لا يمكن ذلك فهناك والدها الذي لا يزال يحتاج إليها، ثم ما الذي جعلها تتذكر ريم؟ كان ذلك منذُ أكثر من عام، "لا.. يا إلهي سوف أُصاب بالجنون" قالت ذلك لنفسها، فقررت أن تضع حدًّا لتلك المعارك في رأسها وأن تدع قطرات الماء تغسل روحها، فما الذي يمكن أن يكون أفضل من حمام ساخن في ذلك اليوم البارد؟ بعد أن انتهت من الحمام الساخن ارتدت ملابسها، الفستان الأزرق البراق نفسه وحين خرجت من غرفتها سمعت صوت ضحك عم سلامة يأتي من الشرفة فذهبت إليه، لا تعرف لماذا ستجلس مع ذلك العجوز! ما الذي يدفعها إلى الاستماع إليه وإلى خطبه الفلسفية عن الحياة! ولكنها ذهبت إليه دون أن تستطيع أن تجيب عن ذلك السؤال في نفسها، كان فؤاد يجلس وبجواره عم سلامة على مقعدين من الطراز القديم يشبهان كثيرًا الكراسي الهزازة ويوجهان نظرهما إلى البحر فوقفت متَّكئة على السور ووضعت يديها على السور وهمت بالكلام:

- قولِّي يا عم سلامة هو المركب اللي هناك ده ملهوش صحاب؟

وأشارت بيدها إلى مركب صغير طافٍ في وسط البحر ويظهر من مظهره أنه خَرِبٌ أو نصف غارق، فأجابها عم سلامة بأنه لا يرى ما تتحدث عنه.

- فين ده يا بنتي؟

- اللي هناك ده.. غريبة! انت أول مرة تاخد بالك منه ولا إيه؟

- آه أول مرة ألاحظه معلش بقى يا بنتي النظر مبقاش زي زمان.

- بس ازاي أول مرة تشوفه؟ أنا كل ما بشوفك بتلعب بيانولا بلاقيك باصص عليه ومركز أوي معاه.

يضحك عم سلامة ضحكة تنتهي بتنهيدة وينظر إلى فؤاد ثم إلى شروق دون أن تغادر الابتسامة وجهه ويتكئ بكلتا يديه على جوانب الكرسي ليقف ثم يتحرك خطوة إلى الأمام ويستند على السور إلى جانب شروق

- أولئك الذين يصرون على الجلوس بمحاذاة النافذة لو سألتِهم عن تفاصيل الطريق لا يعرفون، دي جملة قالها ميخائيل ليرمنتوف شاعر روسي كان متأثرًا جدًّا بألكساندر بوشكين ومعناها واضح، الناس يا بنتي اللي بيحبوا القعدة جنب الشباك في الموصلات والطريق مبيركزوش في أي تفاصيل حواليهم الناس دول يا بنتي بنقول عليهم إنهم متوحدين بيحبوا يقعدوا لوحدهم ويرسموا خيالات ويعيشوا في الوهم، لكن في الحقيقة الناس دول الواقع دمرهم، ووصلهم لمرحلة إنهم يعيشوا كل اللي بيتمنوه في خيالهم وبس، بتحبيه يا شروق!

- هو مين ده اللي بحبه؟

- البحر.

- هو فيه حد مبيحبش البحر؟

- لا مفيش بس اللي بيحبوا البحر نوعين نوع بيشوفه صاحب ورفيق والنوع التاني بيشوفه تسلية، بس المشترك ما بين الاتنين إنهم عارفين كويس إن البحر مش على طول هادي، ساعات بيكون غدَّار وغضبان ويثور لو حس بخوف، وساعات بيكون هادي وونسان بالناس واللمة، كلنا في حياة بعض مواقف وفترات، ومحدش فينا يقدر يحدد هيعيش

الموقف فين وازاي، لكن نقدر نحدد ازاي نتعايش معاه زي بالظبط شخصين واحد نايم على محطة القطر والتاني نايم في القطر، في الحقيقة الاتنين نايمين لكن اللي هيوصل فيهم هو اللي نايم في القطر لأنه اختار يركب حتى لو هينام، كلنا محتاجين نكمل حياتنا حتى لو هنام بس نبقى موجودين ونحس بكل لذة لما ننجح ونوصل لحاجة بنتمناها ونستمتع بكل خسارة اتعلمنا منها حاجة، المتعة يا شروق مش في الوصول للهدف، المتعة يا بنتي في الرحلة، الكنز اللي بندور عليه موجود في كل محطة هنقف فيها في حياتنا إذا كانت مكسب أو خسارة، عارفة.. في حاجات بتبتدي في ثانية وتنتهي في سنين وحاجات بتتبني في سنين وتنتهي في ثانية عشان كده ربنا أنعم علينا بالنسيان، لكن النسيان مش مهم قد الفترة اللي بعد النسيان عشان مبنبقاش عارفين هنروح فين أو هنعمل إيه.

استعمت شروق إلى كلام عم سلامة في صمت وتركيز ولكنها لم تفهم شيئًا، لم يستوعب عقلها الصغير كل تلك الأمثلة فهي لا تزال ابنة العشرين، أجمل فتاة في العشرين كما كان يقول والدها، ولكنها لم تكن تتذكر من كلام عم سلامة سوى تلك الجملة لذلك الشاعر الروسي الذي تجاهلت حفظ اسمه، وخشيت أن يكون ذلك الشاب من أولئك الذين يصرون على الجلوس بمحاذاة النافذة ويكون حين نظر إليها لم يرَها وإنما كان يري ما يعرضه عليه عقله ويرتضي به بصره، كان ذلك الأمر يقلقها بشدة ومع ذلك قررت أن تخرج من المنزل ولكن في تلك اللحظة لم يكن العمل هو الهدف الأول من الخروج بل رؤية الغريب على الصخرة.

***

عندما لا نعيش حياة واقعية جيدة، يبدأ المرء في خلق عالم آخر وهمي بداخل عقله فذلك العالم أفضل من لا شيء.

أنطون تشيخوف

الفصل الثاني

"عازف الليل"

جلس في الشرفة يدخن سيجارته وينظر إلى البحر ويدوِّن بعض الأمور في ورقة كانت موضوعة أمامه، وتمر في خياله ملامح والده ووالدته في ذلك اليوم، وكيف كان والده يربط ربطة عنقه جيدًا قبل أن يصعدوا إلى السيارة، لم يكن يومًا عاديًّا؛ فهو ينتظر ذلك اليوم كل سنة ليسافر مع العائلة إلى الإسكندرية لقضاء بعض الأيام بمنزل خالته، فما أحلى الصيف في الإسكندرية! كانت السعادة تغمره، فهو لا يمتلك شغفًا أكبر من شغفه برؤية البحر واصطياد بعض الأسماك وتدخين السجائر في الهواء الطلق، ركبوا السيارة وبدأ الأب في القيادة مسرعًا على طريق مصر إسكندرية الصحراوي، الليل في منتصفه وكانت أضواء البوابات تقتحم نافذته واحدًا تلو الآخر، هو في أشد الحاجة إلى رؤية تلك الجملة التي لطالما ظلت تخطف قلبه على مدار ٢٤ عامًا، جملة مرحبًا بكم في الإسكندرية، كانت الأم في المقعد الأمامي تتحدث إلى الأب حول إدارة الشركات والمصانع وأنَّ عليه أنْ يكون حريصًا من أخيه الذي تراه يعبث بأموال الشركات من دون أي ردة فعل من الأب، كان

يبدو حديثًا عاديًّا بالنسبة إليه فدائمًا ما كان يرى تلك المناقشات بينهما، لكن في تلك المرة اشتعل الحوار بينهما وانتهى بالأب يصرخ في وجه الأم، وكان هو يجلس في المقعد الخلفي وينظر إليهما في تعجب حتى اصطدمت السيارة بحاجز وأخذت تنقلب عدة مرات لم يكن يسمع فيها سوى صراخ الأم، حتى توقفت السيارة أخيرًا وتوقف معها صراخ الأم وفقد هو الوعي ولم يفِقْ إلَّا على أصوات الإسعاف، وفجأة أفاق من شروده حيث لسعته سيجارته في يده، للمرة المليون ينسى يوسف سيجارته؛ فهو ينسى العالم كله من حوله حين يتذكر تلك الحادثة التي خسر فيها والديه، فألقى سيجارته عبر الشرفة إلى الشارع وكأنه يحررها من يده، وسمع صوتًا أُنثويًّا ينادي باسمه.

***

- يوسف.. يوسف! انت قاعد هنا وانا بقالي ساعة بنادي عليك؟

كان الصوت يصدر من امرأة في العقد الرابع من العمر متوسطة الطول، طويلة الشعر ممشوقة القوام ترتدي فستانًا أزرق يميل إلى لون السماء، وحول عنقها يلتف عقد من الحلي وتمسك في يدها سيجارة وفي اليد الأخرى كأس من الخمر، وعلى وجهها الكثير من مساحيق التجميل التي تضيف إلى مظهرها الجمال وتجعلها تبدو أصغر سنًّا.

- نعم يا فريدة، في إيه؟

- فريدة؟ قولتلك ١٠٠ مرة اسمي خالتو.

- نعم يا خالتو.

- تعالى عشان في ناس عايزين يسلموا عليك، وافرد وشك ده حبة.

- حاضر.

يقوم يوسف ويخرج بجوار فريدة إلى غرفة كبيرة تحتوي على طاولة كبيرة تشبه كثيرًا طاولة الطعام، تلتف حولها سبعة مقاعد يجلس عليها بعض الرجال والنساء الذين تزينوا بالعطور وفساتين السهرة والحلي الفاخر، على الطاولة أوراق اللعب وزجاجات الخمور وكؤوس تصرخ من كثرة ملئها وتفريغها في بطون الجالسين، كان يوسف يقف إلى جوار فريدة وينظر إلى الجميع ويلقي عليهم التحية، وعلى الحائط إلى جانبه وأمامه عُلِّقت لوحات من الزهور والورود وبعض الرسومات الفنية الجميلة، في تلك اللحظة رد الجميع التحية على يوسف بشكل مهذب، عدا تلك السيدة الجالسة على حافة الطاولة فقد كانت تنظر إلى يوسف نظرة شهوة غريبة فابتسم لها يوسف ابتسامة خفيفة وأخذ يتأمل وجهها الذي يُظهر أنها في نهاية العقد الرابع وإلى صدرها البارز والظاهر من الفستان كان مظهرها يشبه كثيرًا مظهر العاهرات لا مظهر سيدة أعمال في منتصف العمر أخذ يوسف يعرض لها تلك الابتسامة المزيفة وأخذ يهمس في أذن فريدة:

- أنا مبحبش الست دي وقولتلك ١٠٠ مرة إنها مش محترمة.

- أولًا مسمهاش ست، اسمها عايدة هانم، وبعدين أنا مطلبتش منك تحبها، أنا قولتلك عاملها كويس عشان دي من أهم سيدات الأعمال في

البلد، وإنك تشاركها ده نجاح كبيرة للشركة اللي سابهالك أبوك، اتفضل سلم عليها واقعد مع الناس شوية.

– أنا مبحبش اللعب ولا الشرب وأظن أن وجودي بينهم ملوش لازمة.

في تلك اللحظة يقف شخص كان يجلس إلى الطاولة وظهره في مواجهة يوسف ويلتفت ليقف في مواجهة يوسف وهو شخص في الخمسين من العمر يمتلك ندبة مميزة أعلى الحاجب الأيمن ولحيةً سوداء مع بعض الشعرات البيضاء فيها وقامة طويلة، ويرتدي بدلةً سوداء مع ربطة عنق حمراء وحذاء أسود لامع، ويبتسم ابتسامة عريضة ليوسف ثم يجذب يوسف إليه ليحتضنه مع استياء شديد من يوسف:

_أهلًا أهلًا بابن أخويا وابني، قولِّي بقى مختفي فين الأيام دي؟ مش بشوفك كتير.

تقول فريدة:

– اسأله بقى بيروح فين طول النهار يا كمال باشا.

– طول النهار!! لا لا.. يوسف! كده غلط لازم تهتم شوية بإدارة الشركة، ولَّا هترمي عليا كل حاجة؟ مينفعش كده، يقول ذلك كمال وهو يضحك وتمتزج ضحكته بأصوات ضحكات الموجودين حول الطاولة وأصوات الكؤوس التي ترتطم بالزجاجات.

– بتمشَّى شوية، وبعدين يا عم أنا معرفش أي حاجة عن الشركة، انت اللي بتديرها من زمان وانت أكتر واحد عارف تفاصيل الشغل بس

أوعدك إني هنزل القاهرة بعد أسبوع وهشيل عنك الحمل، أنا بفكر أغير مجلس الإدارة كله.

تترك تلك الجملة صدمة شديدة على وجه كمال وفريدة وينظران إلى بعضهما بينما يغادر يوسف في اتجاه الشرفة، فيعود كمال إلى الطاولة وهو ينظر إلى فريدة نظرة غضب شديد ويمسك ببعض الأوراق في يده ويحتسي جرعة كبيرة من الخمر دفعة واحدة لكي يطفئ بها تلك النار التي أشعلها يوسف في داخله بتلك الجملة، وأخذت فريدة توزع بعض كلمات الترحيب على الجالسين، فقاطع أحد الجالسين شرود كمال قائلًا: "حتى الشتا مبقاش حلو زي زمان يا كمال باشا" يقول تلك الجملة أحد الجالسين على الطاولة وهو شاب في الثلاثين من عمره يرتدي تيشيرتًا أزرق يميل إلى لون السماء، وهو شاب مبتور اليد اليسرى ومصاب بعدة ندبات تظهر على وجهه ويمسك بإحدى الكؤوس في يده اليمنى وبين أصابعه سيجارة ويظهر على وجهه الحزن الشديد، فيحتسي ما بداخل الكأس ويدخن سيجارته قائلًا: "أنا فاكر زمان لما كنت لسه ظابط في الجيش كان البرد بيجرح جلد العساكر كنا بنقعد ملمومين حوالين النار نشرب شاي ونغني، وكان مراد يحكيلنا عن مغامراته مع الستات ونفضل نضحك لحد ما يهل الصبح، كنت بحس ساعتها إن الحياة جميلة، جميلة لدرجة إني مكنتش متخيل إني أنا بس اللي هعيش والباقي هيموت".

في تلك اللحظة يعم الصمت أرجاء المكان وينظر كلٌ منهم إلى الآخر ومن ثم إلى الشاب مبتور اليد فيرفع كمال رأسه عن أوراق اللعب وينظر إلى الشاب ويقول "الله يرحمهم يا حمزة همَّ في مكان أحسن من هنا".

- أنا عارف إنهم في مكان أحسن من هنا عشان هما يستاهلوا كده، لكن أنا.. أنا مستاهلش أبقى معاهم.. طب ليه منا عشت عمري كله واحد منهم.. إزاي يمشوا ويسيبوني من غير حتى ما أكون قادر أرَّجع حقهم بالإيد دي.. يقول ذلك حمزة وهو ينظر إلى يده المبتورة.

_انت لسه ليك عمر ولسه هتشوف يا حمزة.. وبعدين انت هتقلبها غم ليه! إحنا جايين ننبسط ونلعب، العب العب يا راجل.

***

يعود الجميع إلى اللعب واحتساء الكؤوس والضحكات المرتفعة، وتطفو على سطح الطاولة أدخنة اختلفت أنواعها ولكنها لا تزال أدخنة، ويجلس يوسف في الشرفة ينظر إليهم في حسرة ويعود ليشعل سيجارته وينظر إلى البحر متأمِّلًا المنظر وتعود به الأيام إلى بوابة الإسكندرية وإلى تلك الأضواء التي تقتحم نافذته، وتعود تلك الكلمات التي تقولها والدته إلى والده تتزاحم داخل رأس يوسف وتعود الحادثة وصوت الإسعاف ويتكرر المشهد ويختلط بصوت الضحكات والكؤوس..

استجمعت قواها لتخرج إلى الشارع بعد أن وضعت سماعات الأذن وأخذت تستمع إلى مقطوعة سوناتا الكمان الثانية لبيتهوفن تلك المقطوعة التي أظهرت قلب بيتهوفن الحزين في اتحاد الكمان مع البيانو، كانت المقطوعة تليق كثيرًا بالمشهد؛ فلم تكن شروق تسير بخطى ثابتة بل كانت كالذي يسير إلى تنفيذ حكم الإعدام وبعد خطوات قليلة جلست في المحطة ونظرت إلى الصخرة ولكنها لم تجده، أين هو ذلك الغريب؟ كان هذا السؤال يتكرر في عقل شروق ولم تكن تعرف لماذا هي حزينة على فراق هذا الشخص! جلست تستند بوجهها على كلتا يديها اللتين وضعتهما سابقًا على فخذيها وتنظر إلى الصخرة في حزن شديد والأصوات تتصارع في رأسها وتمزقها من الداخل وكأن بيتهوفن هو حليف تلك الوحدة، فأخذت أوتار الكمان تتلاحم مع مفاتيح البيانو مدمرةً كل الأمان في داخلها، فهذه هي المرة الأولى التي لم تكن تشعر فيها بالأمان وهي تستمع إلى الموسيقى وتنظر إلى البحر، فلقد كانا أعزَّ صديقين لها فكيف إذن أصبحا فجأةً أعداءً لها؟ مرت الدقائق وهي تنظر إلى الصخرة الفارغة ويتملكها شعور الخوف الذي لم تختبره سوى مرة واحدة حين علمت أن والدها مريض بالسرطان للمرة الأولى فأخذت تسير في اتجاه العمل وهي تحدث نفسها: ما الذي يحدث معي؟ لماذا أصبحت هشةً من الداخل هكذا؟ أليس هذا هو الحب الذي يقتل الناس حين يتملكهم وحين ينهزمون وحين يخسرون من يحبون؟ ولكني لا أعرف شيئًا عن هذا الشخص، لم يكن سوى غريب يجلس على تلك الصخرة التعيسة

والتي ظلت هي أيضًا تنظر إلى البحر سنوات وسنوات وأجزاؤها تتآكل من الأمواج.

كان الصراع الدائر في عقل شروق أكبر منها بكثير؛ فهو صراع قد قتل البشر سابقًا حيث إن ضحاياه أكثر من ضحايا الطاعون، إنه صراع المنطق والواقع، صراع العقل والقلب، فهي تعلم أن هناك من الحب ما قتل، أولم تقرأ عن روميو وجولييت اللذين انتحرا من أجل الحب؟ بلى لقد فعلت، ولكنه ليس روميو إنه شخص لا تعرف له اسمًا وهي ليست جولييت فهي لم تقترب منه مرة ولم تنظر إلى عينيه سوى نظرة، دخلت شروق إلى المكتب وللمرة الأولى منذُ عامين تنسى أن تمسك الوردة وللمرة الأولى تنسى أن تحتسي النسكافيه حتى تختفي الأبخرة المتصاعدة منه هباءً دون أن تلامس تلك الشفاه الصغيرة التي تشبه فاكهة الصيف، جلست إلى المكتب وعيناها نهر تتساقط فيه الأمطار فيفيض، كانت ملامح الحسرة والخذلان تعتلي ذلك الوجه الملائكي الصغير، وكان أحمد يجلس ويرى تلك الملامح على وجه شروق وتعتريه الحيرة والشكوك وكالعادة لم تحضر ياسمين في موعدها، مرت الدقائق باردة على أحمد الذي لم يعد يفهم ما الذي يحدث مع تلك الفتاة، فهو يعلم أن بداخلها بركانًا من الحزن وغابة من التناقضات، ولكنه لم يكن مغامرًا ليقرر اقتحام تلك الغابة ويكتشف ما بداخلها، وهو يعلم جيدًا في نفسه أنه لو صرَّح بحبه لشروق فقد تكون العواقب وخيمة وقد يخسرها؛ ولذلك تعمد مغادرة الغرفة وتركها بمفردها في صمتها القاتل، وبعد لحظات من مغادرة أحمد دخلت ياسمين وفي يدها

القلم الرصاص المعتاد والأوراق ونظرت إلى شروق في حيرة ثم جلست أمامها وأخذت تسألها عمَّا حدث وكأن ذلك السؤال هو عود الثقاب الذي اقترب من محطة الوقود فانفجرت شروق باكيةً فاحتضنتها ياسمين في حزن وأسى على حالها؛ فتلك الفتاة الجميلة لم تكن تبكي قط ولم يظهر عليها ولو لمرة واحدة علامة من علامات الحزن، كانت الأسئلة في جوف ياسمين أكثر بكثير ممَّا في جوف شروق، وفي ظل تلك الحالة اليائسة والأجواء الحزينة التي سيطرت على الغرفة كاملةً كان أحمد في حديقة البناية ينظر إليهما من خلف النافذة في حزن وكأن الحزن الموجود في ضواحي فيينا في الشتاء قد هاجر إلى تلك الغرفة واستقر بها، أخذت شروق تتمالك أعصابها وتتنهد ثم بدأت تحكي لياسمين عمَّا حدث وعن اختفاء ذلك الشاب فجأة، وكانت ياسمين تحث شروق على عدم التفكير في الأمر وتلقي عليها بعض العبارات الممزوجة بالمنطق والتي تمحورت حول كونها لا تعرف ذلك الشاب وأنه هو أيضًا لا يعرفها وأن ما يحدث معها ما هو إلَّا فراغ عاطفي، وأخذت تطرح الأسئلة على شروق وتجيبها: "هل تعتقدين أنه يأبه لأمركِ أو أنه يفكر فيكِ الآن.. لا، لن يحدث ذلك فهو لا يعرفكِ" وأخذت تنصح شروق بنسيان الأمر وبأن عليها أخذ إجازة لتريح أعصابها وتقرأ بعض الكتب وتستمع إلى بعض الموسيقى وتتجول في المدينة، ومرَّ ذلك اليوم ثقيلًا جدًّا على الجميع وأصبحت الساعة الثالثة، وكانت شروق تنتظر في ترقب لكي ترحل آملة أن تجد ذلك الشخص جالسًا، فوضعت سماعات الأذن وأخذت تسير في اتجاه

المنزل، وحين وصلت إلى المحطة لم تجده فأسرعت إلي المنزل ودخلت غرفتها وأغلقت الباب وارتمت في الفراش وفي الوطن الذي يُعد آمنًا بالنسبة إلينا جميعًا، مر الوقت سريعًا وغطت في النوم، وفي صباح اليوم التالي أيقظتها أمها وهي تخبرها أنها ذاهبة إلى منزل خالتها للمكوث معها في فترة الولادة وأن على شروق أخذ إجازة لمدة أسبوع لكي تجلس مع والدها وتلبي كل احتياجاته، كأن القدر حكم عليها بما تخشاه، فهي تخشى أن تجلس بمفردها لكي لا تسمح لعقلها بالتفكير فيه، ولكن في النهاية سوف تجلس بمفردها لمدة أسبوع، فهي تعلم جيدًا أن والدها يقضي معظم الوقت مع عم سلامة أو نائمًا في غرفته، قضت معظم النهار في غرفتها تقرأ بعض الكتب محاولةً أن تطرد الأفكار عن مخيلتها، وفي تمام الحادية عشرة مساءً تلقت اتصالًا هاتفيًّا من أحمد بينما كانت مستلقيةً على الفراش أسفل النافذة وتضع سماعات الأذن وتستمع إلى موسيقى سامفيل وتقرأ رواية دفتر الملاحظات للكاتب نيكولاس سباركس التي سافرت معها إلى فترة الحرب العالمية الثانية حين رنَّ الهاتف، فأجابت في ترقب لتجد أحمد يخبرها أنه انتهى في الحال من حفظ بعض الألحان الجديدة وأنه سوف يمر أسفل منزلها بعد عدة دقائق وأنه يريد أن يراها إن أمكن، فأخبرته أنها نائمة ولا تستطيع النهوض من الفراش، فأخبرها أنه سوف يرسل إليها رسالة صوتية تحمل عزفه على الكمان ويتمنى أن ينال إعجابها ولكنها لم تكن تصغي جيدًا لما يقول، وقد أحس هو بذلك من صمتها

المتكرر في أثناء المكالمة فشعر بإحراج شديد فاعتذر منها وأغلق الهاتف.

وضعت الهاتف إلى جانبها وعادت إلى القراءة وإلى قصة الحب العميقة التي تعرضها الرواية وأخذت تطوي الصفحات الواحدة تلو الأخرى حتى اقتربت الساعة من منتصف الليل وبينما هي غارقة في قراءتها سمعت صوتًا غريبًا يأتي من خارج النافذة، فنزعت سماعات الأذن وحاولت الإصغاء جيدًا فكان الصوت الصادر من الخارج هو صوت عزف على آلة الكمان، كان اللحن حزينًا للغاية فأخذت تصغي إلى اللحن وتنظر إلى السقف وتتذكر ملامح الشاب الغريب على الصخرة وبدأت تدمع عيناها حين تذكرت أنه لم يعد موجودًا وأخذ اللحن الصادر من أسفل النافذة في التفاعل والاستمرار حتى غطت في النوم، لم تعلم متى انتهى العزف أو لكم ساعة استمر؛ لأنها كانت قد غرقت في النوم قبل أن يتوقف العزف، كان نومها في تلك الليلة يشبه السقوط من السماء إلى قاع البحر، كان هادئًا للغاية محملًا بالسكون والترقب.

في صباح اليوم التالي استيقظت في تمام الثامنة صباحًا ومرت بوالدها في غرفته كان لا يزال نائمًا تحت غطائه متخفيًا من برد الشتاء فعادت إلى غرفتها وارتدت فستانها الأزرق الرائع، خرجت إلى الشارع وقالت في نفسها لن تخسر شيئًا إذا ألقت نظرةً على الصخرة فربما عاد إلى مكانه، وبعد عدة خطوات نظرت إلى الجهة الأخرى فكان المكان فارغًا، فعادت إلى المنزل وإلى الغرفة وإلى الموسيقى والقراءة، مر اليوم بطيئًا

وثقيلًا ومليئًا بالأوجاع والآلام، وفي وقت الغداء تناولت الغداء مع والدها وأعطته بعض الأقراص ثم تناولت القرص الأبيض ودخلت إلى غرفتها، ظلت جالسةً على فراشها حتى منتصف الليل تنظر إلى السقف وتفكر في الفتى الغريب، ذلك الأمير الذي غادر مدينتها دون وداع ودون عناق كما كانت تقرأ في القصص، وفي تمام الثانية عشرة بعد منتصف الليل صدر صوت الكمان نفسه من أسفل النافذة مرة أخرى، يعود العازف ليلقي على قلبها القليل من الأمل ويبعث في روحها الحياة؛ فلقد كان اللحن في تلك الليلة سعيدًا وكأن الأوتار تتراقص بين يدي العازف فانتصبت من الفراش وأخذت تتخيل أنها بين يدي الغريب وأخذت ترقص معه حتى سقطت على الفراش وغرقت من جديد في النوم، كانت حياة الفتاة تتغير يومًا بعد يومٍ وكانت قد تحولت من فتاةٍ سعيدة ومقبلة على الحياة إلى وردة جافة تخشى الحياة وتترقب الموت في هدوء، لم تفهم كيف أثَّر فيها غياب شخصٍ لم تعرف له اسمًا، كانت تعد الحب من النظرة الأولى محض أسطورة جميلة تُذكر في الروايات والحكايات فقط لكنها أصيبت بذلك المرض منذُ المرة الأولى التي رأت فيها ذلك الشاب، فمرت الأيام واقترب الأسبوع على نهايته ولم يعد للفتاة سوى يوم واحد ستقضيه وحيدة ثم تعود إلى العالم في الغد وتخرج إلى العمل، في ذلك اليوم الأخير استيقظت صباحًا ومرت بغرفة والدها ثم ارتدت فستانها وخرجت لكي تلقي تلك النظرة اليائسة على صخرة الأمير الغائب فنظرت إليها ولم تجد اختلافًا، الفراغ نفسه الذي

اعتادت رؤيته مدة ٨ أيام، فالتفتت لتعود إلى المنزل وهناك قابلت عم سلامة يقف أمامها في ترقب فارتبكت..

- لسه بردو ملقيتيهوش؟

- هو إيه ده؟

- اللي بتدوري عليه، أنا بشوفك كل يوم نازلة بتمشي خطوتين وبعد كده ترجعي فقولت أسألك لتكوني بتدوري على حاجة فأساعدك

- لا بس انت عارف إني بحب أتمشَّى على البحر.

- واضح، وواضح كمان إنك متغيرة اليومين دول، بصي يا بنتي اللي عايزك تفهميه إن الحياة كلها مواقف منها الصعب ومنها السهل فيها اللي يفرح واللي يزعل، بس لازم تبقي متأكدة إن كله بيعدي، مفيش حد هيفضل سعيد طول العمر أو حزين طول العمر، لكن في إنسان بيتعامل مع الحزن بعقل وبمنطق علشان يكمل، مستحيل إن الحياة تقف عند موقف معين لازم نكمل ولازم كمان نبقى عارفين إننا مش هنرجع زي الأول بس المهم إننا نكمل يمكن نلاقي الحاجة اللي عشنا ندور عليها، فاكرة لما كنتي بتسأليني عن البحر؟

- أيوه فاكرة.

- الناس اللي بيحبوا يقربوا من البحر يا بنتي هما الناس المكتئبين، ٨٠ في المِية من الناس دول بيشوفوا الصورة من مليون زاوية وما فيش ولا زاوية بتعجبهم فبيعتزلوا الحياة ويصاحبوا البحر مع إن الناس دول

أذكياء بس بيقعوا في الغلطة اللي كلنا بنقع فيها وهي إننا بنعافر في حاجات مش لينا.

- وطالما هما أذكياء ازاي بيعافروا في حاجة هما عارفين إنها خسرانة؟

- ساعات الذكاء بيقصر العمر، عارفة.. متوسط عمر الحمير ٤٠ سنة مع إنها حيوانات مش ذكية أوي، هي بس بتستخدم القوة البدنية أكتر من العقل والحكمة على عكس الذئاب اللي بتعتبر أذكى وأسرع، مع إن متوسط عمر الذئاب ١٤ سنة بس؛ لأن الذئاب بتحارب وتعافر وبتدخل في صراعات مع كل اللي حواليها ومبتزهقش من الحرب، على عكس الحمير اللي بتستسلم وبتعيش في السلام، الناس دول بقى عاملين زي الذئاب بيختاروا الحياة اللي كلها معافرة وكلها حروب وصراعات وعشان كده بيموتوا بدري حتى وهما عايشين بيموتوا وبتموت جواهم اللهفة والشغف، أنا كان نفسي أبقى حمار على الأقل كنت هعيش في سلام، أنا بقيت حمار بس متأخر شوية..

تنظر شروق إلى عم سلامة في حزن شديد وتصعد السلم في اتجاه غرفتها، تلقي بجسدها على الفراش وتعيد كلمات عم سلامة في ذاكرتها وتنظر إلى السقف وتتمنى لو كان موجودًا لتخبره كم اشتاقت إليه، لكي تعانقه بشدة حتى تتلاشى من العالم في ذلك العناق، ظلت شروق على تلك الحالة مدة طويلة تفكر وتفكر ولكن الآن عليها أن تبدأ تفكر بحكمة أكثر، لا يمكن أن تتوقف حياتها عند ذلك الشاب الغامض، عليها أن تكمل.. إن لم يكن من أجلها فمن أجل والدها ومن أجل

الأشخاص الذين يستمدون القوة منها، فقررت أن تتخلى تمامًا عن ذلك الشاب وأن تدع صورته تغادر رأسها إلى النهاية ومن دون رجعة وأن تكمل حياتها حتى إن كانت ستعاني ولكنها ستكمل، ظلت تفكر حتى الساعة الثانية عشرة إلَّا خمس دقائق فنظرت إلى الساعة وهي مستلقية في فراشها، فدفعت النافذة بيدها لتجعل صوت اللحن يصل بصورة أوضح ويتسلل إلى داخل الغرفة، وفي تمام الساعة الثانية عشرة بدأ العزف يدخل إلى أرجاء الغرفة ويتصاعد إلى أعلى فأعلى، وأخذت شروق تستمع إلى صوت الكمان القادم من أسفل النافذة وأخذت تبكي وكأن اللحن والبكاء يغسلانها من الداخل وكأنها تريد أن تصبح فارغة من الداخل كما كانت قبل أن يقتحم ذلك الشاب حياتها وقبل أن تصبح أسيرة سحره الغامض، ظل الصوت يرتفع ويرتفع وأخذت هي تبكي وتبكي حتى أغمضت عينيها وذهبت في نوم عميق على صدى الكمان الغامضة..

***

استأذن من الجميع وترك أوراق اللعب على الطاولة وأمسك بأحد الكؤوس ثم اتجه إلى الشرفة وجلس على المقعد ثم وضع الكأس على الحافة وأخرج سجائره وأشعل واحدة ونظر إلى البحر واستمع جيدًا إلى صوت اصطدام الأمواج بالصخور وأخذت تتصاعد أصوات الاصطدام لتصبح أصواتًا تشبه دوي انفجارات العبوات الناسفة فأغمض عينيه ووضع يده اليمنى على اليد المبتورة وأخذ يشرد ليتذكر

ذلك اليوم، كان صيف عام ٢٠١٨ في سيناء بين الجبال والرمال والصخور والفراغ المحيط بالوحدة العسكرية، وقف مراد أمام نافذة مكتبه وهو يرتدي زيَّه العسكري يدخن سيجارة وينظر إلى الصحراء الجميلة، كانت إحدى ليالي الصيف الساكنة، عندما طرق باب مكتبه فأذن للطارق بالدخول ليدخل أحد العساكر ويسأل عمَّا إذا كان يحتاج إلى شيء فيرد عليه مراد بالشكر فيغادر الجندي ويخرج خلفه مراد ويسير في أرجاء الموقع ليجد بعض الجنود يجلسون حول نارٍ وُضع عليها بعض أكياس المياه لتغلي فيصنعون منها الشاي، كانت تلك حيلة يستخدمها الجنود لصناعة الشاي كانت فكرة بسيطة ولكنها تحمل في داخلها الكثير من علوم الفيزياء، نظر إليها مراد في سعادة، وكان من بين الجالسين حول النار الضابط حمزة..

- الحبايب كلهم هنا.

يقف الجميع مؤدين التحية العسكرية لمراد عدا حمزة فهو يساويه في الرتبة.

- استرح.

يجلس الجميع بعد سماع تلك الكلمة

- أهلًا أهلًا بالعريس، يقول حمزة تلك الجملة وهو يبتسم.

- اسكت متفكرنيش إني خلاص هدخل المصيدة وهودع كل الستات التانية.

- يا أخي اتهد بقى انت خلاص فاضلّك أسبوع وتبقى زوج محترم، طب تصدق والله فرحان فيك عشان تتلم شوية.

يضحك الجميع ويهنئون مرادًا باحترام وتقدير ومن ثم يعطي حمزة أوامره للجميع بالانصراف ولكن بعد احتساء الشاي، فيقف ويضع يده على كتف حمزة ويسيران في اتجاه أحد الأكمنة التي وُضعت على الطريق، ويخبر حمزة مرادًا أن عليه تقديم طلب نقل إلى مكان آخر وأن المهام التي يقومون بها لم تعد مناسبة له خصوصًا بعد أن يتم قرانه فيغضب مراد من حمزة ويرفض النصيحة ويخبره أنَّ عليه أن يؤدي واجبه كما هو وأنه لن يبارح تلك الأرض قبل أن يطهرها من الإرهاب أو يستشهد وهو يفعل ذلك فينظر إليه حمزة نظرة إعجاب، في تلك الأثناء تقترب سيارة دفع رباعي من الكمين وتضيء كامل إضاءتها ما يُصعِّب الرؤية على الجنود الواقفين هناك فيبدأ أحد الجنود بالإشارة إلى السيارة بالتوقف وهو يحمل بندقيته الآلية وأخذ يصيح فيهم بالتوقف فيلتفت حمزة ومراد إلى المشهد وينتصب الجنود الجالسين حول النار على إثر تلك الصيحة ويمسك كلٌ منهم ببندقيته ويتجه صوب الكمين، بينما يركض حمزة ومراد إلى غرفة الأسلحة ويحملا أسلحتهما ويبدأ إطلاق النار يخرج من السيارة وتظهر خلفها خمس سيارات أخرى من الطراز نفسه تعج بالأشخاص الملثمين ويطلقون النار على الكمين فيرد الجنود عليهم النار ويسقط أحد الجنود ويصرخ عليه مراد ويلفظ اسم المجند عدة مرات ثم يُهرع لإنقاذه في ظل إطلاق النار الكثيف فيقف أحد الملثمين أعلى السيارة ويمسك بمدفع آر بي

جي ويطلق قذيفة في اتجاه المجند ومراد، في تلك اللحظة كان حمزة في طريقة لتغطية مراد حين انفجرت القذيفة فتطاير الغبار والرمال وحجبا الرؤية عن الجميع فظل حمزة ساقطًا مغشيًا عليه وكل ما يسمعه هو صوت الطلقات والصياح والانفجارات المتكررة وتداخلت أصوات الانفجارات مع أصوات تلاطم الأمواج بالصخور فصرخ حمزة صرخة غضب وسقطت الكأس من يده، جذبت تلك الصرخة الجالسين على الطاولة فنظر الجميع إليه وانتصب كمال وذهب في اتجاه حمزة وأخذ يهوِّن عليه ويربت على كتفيه وتركه في عزلة وغادر إلى الخارج..

***

في صباح اليوم التالي كانت الساعة نائمة بينما أيقظت قطرات بكاء شروق المنبه ليصرخ في أذنيها بأن تكف عن البكاء وتستيقظ مجددًا إلى العالم، فنهضت من فراشها وأغلقت المنبه وأخذت تنظر إلى السقف وتجفف عينيها وانتصبت لتدخل إلى الحمام وتضع على وجهها دفعات من الماء البارد مرة تلو الأخرى ونظرت إلى نفسها في المرآة وأغمضت عينيها لكي تلقي عليه السلام الأخير فلقد اعتزمت نسيانه، وبعد أن ارتدت ملابسها وجهزت نفسها للذهاب إلى العمل خرجت شروق إلى الشارع ولكنها لم تعد إلى سابق عهدها فلم تكن تضع سماعات الأذن وظل سامفيل يرفينيان وحيدًا هو وموسيقاه، وأخذت تخطو خطوات يائسة دون ابتسامة ودون الشعور بالأرض تحت

قدميها، أحست شروق باهتزاز عميق في داخلها وكأن هناك ألف لوح من الألواح الزجاجية يتحطم في داخلها، ولكنها في النهاية أيقنت أنها سوف تحيا مع تلك الكسور والشروخ في داخلها وحثت نفسها على تقبل الأمر، كان الزحام شديدًا في رأسها في ذلك اليوم على عكس الطريق التي تقطعها فلم يكن هناك من يستطيع تحمل برد ذلك اليوم والوجود في الشارع، وبعد خطوات قليلة قطعتها شروق بصعوبة وجهت رأسها إلى الصخرة وحدث ما لم تكن تتوقعه، فلقد وجدت أميرها الغائب عن حصنه جالسًا في مكانه على الصخرة فتوقف الزمن حينها بالنسبة إلى شروق وأحست أن الأرض توقفت عن الدوران وأن هناك شمسًا مختلفة عن شمسنا قد أشرقت ودفعت بالبرد إلى البحر وسيطر الدفء على المشهد، توقفت شروق عن الحركة وأخذت تنظر إليه في سعادة وفرح وتنظر إليه نظرة تحمل في أعماقها اللوم والعتاب، وللمرة الأولى عبرت شروق الطريق دون إعطاء اهتمام للسيارات المارة وأخذت تقترب منه وأنفاسها تتعالى لتصبح كصوت أنفاس عدَّائين الماراثون، فلقد كان قلبها يخفق بشدة ويصطدم بتلك الضلوع النحيلة والبارزة أسفل رقبتها الصغيرة ولكنها حدثت نفسها في تلك اللحظة بأنها لن تدع الحزن يقتلها ولن تدع الخوف يمنعها من محادثة ذلك الشاب فجلست إلى جانبه في هدوء وفرحة شديدة، وكان هو يستعد ليخرج علبة سجائره من جيب الجاكيت ووضع السيجارة بين شفتيه دون أن يشعلها وأخذ ينظر إلى البحر ثم أخرج أعود الثقاب

وأشعل واحدًا وجعل ناره تلتهم تبغ السيجارة في سلام فتحدثت إليه شروق دون تردد:

- وحشتنا يا عم.

فابتسم ابتسامة خفيفة ورد دون أن ينظر إليها:

- وحشت مين؟

كانت هذه أولى كلماته التي تسمعها شروق فأحست بتراقص تلك الكلمات في داخلها، فلقد كان صوته هادئًا ودافئًا يشبه هدوء الربيع.

- بس اسمع بس، انت تعرف المثل اللي بيقول يوضع سره في أضعف خلقه

فيومئ هو بالموافقة ويدخن سيجارته وينفخ دخانها في السماء.

- اعتبرني أنا أضعف خلقه، وقولِّي حكايتك يمكن أساعدك، أصل انا بشوفك قاعد هنا كتير لوحدك ومكتئب كده، دا حتى يوم الحادثة انت متحركتش خالص ولا بصيت حتى على الشارع.

- حادثة؟ حادثة إيه؟!

- اللي كانت هنا من فترة، على العموم أنا كنت حابَّة أقولك إنك لو محتاج مساعدة أو محتاج حد تحكي له أنا موجودة.

قالتها وهمت بالوقوف والرحيل فأمسك بيدها وهو جالس ليجعلها تنتظر، فنظرت شروق إلى يده وإليه في رهبة شديدة كانت تشعر وكأنها تحلم وأن هذا كله ليس حقيقيًّا، ولكنه ليس كذلك فهي أمامه الآن وهو

يمسك بيدها وينظر إليها، حدثت نفسها بذلك في تلك اللحظة، فقاطع شرودها وبدأ بالكلام.

- استني بس إنتي رايحة فين؟

- ماشية.

- انتي شكلك مركزة معايا جدًّا، بس مش مهم ممكن تقعدي وانا هقولك كل حاجة؟

فجلست شروق إلى جانبه ولكنها كانت تواجهه، فأخذ نفسًا من سيجارته ونظر إليها، ولم يكن يفصل بينهما سوى دخان تلك السيجارة فأحست أنها قريبة جدًّا منه لدرجة أنها كانت تستمع إلى دقات قلبها تختلط بدقات قلبه..

- بصي بقى يا ستي أنا معنديش مشاكل ولا حاجة أو بمعنى أصح عندي المشاكل الطبيعية اللي عند أي حد زي الأحلام والطموح والتفكير في بكرة وكده يعني، أنا اسمي يوسف عبد الحميد النجار عندي ٢٤ سنة والدي كان راجل أعمال ووالدتي مدرسة موسيقي، أنا عايش في القاهرة مش هنا، جيت إسكندرية الصيف اللي فات في شهر ٦، كنت جاي أنا ووالدي ووالدتي نزور خالتو ونقضي معاها كام يوم زي كل سنة لكن واحنا في الطريق عملنا حادثة وتوفي فيها والدي ووالدتي ومن ساعتها وانا قاعد عند خالتو هنا، عشان مليش حد يقعد معايا ومش عايز أرجع القاهرة.

كانت شروق تستمع إليه بانتباه شديد وتنظر إلى عينيه فأخيرًا هي تكتشف وتقتحم حياة ذلك الشاب الذي كان يسمى الغريب حتى تعرفت على اسمه.

- الله يرحمهم، بس مقولتليش بردو إشمعنا بتقعد في المكان ده كل الوقت ده!

_كل الحكاية إني بحب البحر زي أي حد، بس من فترة كده بقيت بشوف بنت بتعدي من الناحية التانية كل يوم الصبح، جميلة جدًّا، جميلة في روحها أكتر من جمال شكلها، لما بتعدي من هنا بحس كأن الموج بيرقص مع شعرها، عارفة.. كنت كل مرة بشوفها بحس إن الدنيا كلها فرحانة وإن الشمس بتتكسف من جمالها فمبتطلعش، بس كنت بتعمد إنها متلاحظش إني ببص عليها عشان مسببلهاش إحراج، ولأنه من العيب إننا نركز مع حد عشان منهزش فيه ثقته بنفسه.

كانت شروق تستمع إلى تلك الكلمات في صدمة وكأن المطر لم يهطل على أحد سواها فأومأت إليه ليكمل حديثه.

- بس يا خسارة مقدرتش أعرف عنها حاجات كتير، هما ٣ حاجات بس، إنها بتعدي الساعة ٨ إلا ربع وبترجع الساعة ٣ إلا خمسة، وعرفت عنوان بيتها، هي ساكنة في العمارة اللي هناك دي.

وأشار بيده إلى البناية التي تسكن بها شروق، فلم تكن هي واعية لما يحدث، أحست كأن الزمن لا يستطيع التحرك وأن الحرب عادت من

جديد لتقضي على الجميع ولم ترحم سواها هي وهو والبحر ودخان تلك السيجارة.

- وآخر حاجة عرفتها عنها إنها بتحب الكمانجا، بقيت كل يوم بروح تحت شباكها ألعب لها كمانجا على أمل إنها تطلع فيحصل بينَّا تواصل أو على الأقل تحس بيَّا، أنا نسيت أقولك إني بحب الكمانجا جدًّا وإن والدتي علمتني العزف عليها في طفولتي، لكن للأسف مكانتش بتطلع كانت بتكتفي بإنها تسيب شيش شباكها مفتوح وبس.

نزلت تلك الكلمات على شروق كالصاعقة فأحست أنَّ قلبها قد توقف من كثرة خفقانه دون جدوى شعرت وكأنها استسلمت إلى ذلك الشخص بكل جوارحها، فكيف لها أن تعي أن الشخص الذي كاد أن يحطمها تمامًا، كانت هي محور حياته وهدفه؟ كيف على عقلها الصغير أن يعي أنه هو من كان يؤنس وحدتها بصوت موسيقاه؟ لقد كان هو دائمًا في كل مرة، فلم تستطع أن تتفوه بكلمة واحدة، خانتها الكلمات ورحلت عن رأسها وبقيت شروق فارغةً تمامًا من الداخل مستسلمة لكلماته كاستسلام فرنسا للقوات النازية في الحرب العالمية الثانية، أما بالنسبة إلى يوسف في تلك اللحظة فكان حاله ككل الرجال حينما يشعرون بالحب فيصبحون شعراء وفنانيين وتخرج منهم الكلمات كالنهر الفائض دون توقف، فنظر إليها مبتسمًا وأخذ نفسًا من سيجارته وأكمل حديثه:

- أيوه إنتي.. أيوه إنتي يا بنت الناس اللي عشانها بفضل أعزف

إنتي لوحة من الجمال عشان عنيكي هفضل ارسم
إنتي أصلًا.. إنتي أصلًا عود بيعزف لحن زايد بالكمال
إنتي زي ما هقدر أوصف
رقصة هادية على الكمان
إنتي بحر وموجه عالي
وانتي ليا طوق نجاة
إنتي مزيكة حياتي إنتي ١٠٠ مليون كمانجا رافضة تعزف للفراق..

وأخذ يصف مقدار حبه لها وأخذت عيناها تدمعان من الفرح ومن الكلمات، ولكنه على عادته قد نسي تلك السيجارة التي أشعلها حين جلست إلى جواره، فاقتربت نيرانها من يده لتحرقه كالعادة، فانتفض وهي كذلك، ولكن في تلك المرة لم يكن يفصل بينهما طريق ومارة، كانا مقتربين جدًّا في تلك المرة لم تكن هناك حواجز فانتفضا معًا وأصبحت بين ذراعيه في عناق لم تستطع الكلمات وصفه في تلك اللحظة، واحترامًا لهما توقف الموج عن ضرب الصخور ليجعلها تستمع إلى أنفاسه جيدًا، وهطل المطر ليختلط بدموع شروق، ودام العناق دقيقة كاملة، كانت شروق فيها غائبة عن الوعي فهي تحتضن ذلك الغريب دون اكتراث لأمر المارة، فليكن ما يكون، وحين انتهى العناق نظرت إليه في خجل ونظر إليها بابتسامة وأخذ يسألها عن اسمها، فضحكت وضحك هو الآخر فلقد أحب فتاةً لا يعرف لها اسمًا، ما فائدة الأسماء في حياتنا؟ كانت أمي تقول دائمًا إن الأسماء خلقت

لنفرق بين مشكلاتنا وخسارتنا بها فمع كل اسم يسقط على سمعنا نتذكر شخصًا وموقفًا وخسارةً وكسرًا ظل داخلنا.

***

في تلك اللحظة نسيت شروق العالم بما فيه، وأخذت تحكي ليوسف عن حياتها وعن والدها وصراعه مع السرطان، وعن ياسمين تلك الفتاة الجميلة والصديقة الرائعة، وعن أحمد ذلك المثقف الذي يعاملها بلطف، وعن الأستاذ معتز وعن كل ما يفعله معها ليجعلها سعيدة، تعمدت شوق ألَّا تخفي شيئًا عنه وأن تخبره بكامل حياتها وأسرارها حتى إنها أخبرته عن ريم صديقتها التي انتحرت منذُ عامين، وكان يوسف يستمع إليها في انتباه، وظلَّا يتحدثان نحو ساعتين، وأخبر كل منهما الآخر كامل قصته بغض النظر عن تلك الأشياء غير المسموح للآخرين -مهما كانت درجة حبنا لهم- أن يعرفوها، في داخل كل إنسان منا غرفة مظلمة تحمل أبشع الأسرار، لا يسمح لأحد بالدخول إليها أو اقتحامها حتى وإن كان النصف الآخر لقلبه.

***

وأخذت الأيام تمر اليوم تلو الآخر وكانا يتقابلان يوميًّا دون انقطاع، وأصبحت تلك الصخرة هي عالمهما الخاص والصغير وأصبح يوسف هو من يعطي شروق تلك الأقراص البيضاء التي تخفف من ألم الصداع وأخذت تستمع إلى عزفه يوميًّا، فكانت الحياة قد ابتسمت أخيرًا

لشروق، ولكن الحدث الغامض أنهما يلتقيان كل أيام الأسبوع تقريبًا، عدا يوم الخميس، فكان ذلك اليوم غريبًا جدًّا حيث يختفي يوسف تمامًا ولا تستطيع شروق أن تصل إليه، وظلت تسأله عن ذلك الأمر مرات ومرات وكان يتهرب دائمًا حتى أصبح الأمر يؤرق شروق فانتظرت حتى يوم الأربعاء وجلست إلى جواره على الصخرة ونظرت إلى عينيه فأخرج يوسف من خلف ظهره علبة هدايا صغيرة بها خاتم يتضح من مظهره أنه باهظ الثمن وقدمه إلى شروق وهو يبتسم، ففرحت شروق بتلك الهدية ولكنها أحست بالخجل الشديد فهي لا تمتلك المال الكافي لشراء هدية له، لكنها تذكرت أنها ترتدي سلسلة من الفضة بها قلب فضي عبارة عن نصفين، فانتزعت نصفًا وأعطته إياه واحتفظت بالنصف الآخر، فأمسك يوسف بنصف القلب الفضي في يده وقبَّله ووضعه في جيب الجاكيت الأيمن وأخذ يعانق شروق، وأخذت هي تسأله عن سر غيابه يوم الخميس وأصرت على أن تسمع إجابة حقيقية في تلك المرة فلقد أصبح الشك يتملكها بسبب ذلك الأمر، فأشعل سيجارة وأخذ يخبرها أن له صديقة منذُ الطفولة تُدعى دينا وأنها كانت تعيش مع زوجها هنا في الإسكندرية ولم تكن الحياة بالنسبة إلى دينا سوى زوجها، فكانت علاقة الحب التي تجمعهما علاقة متماسكة جدًّا، وبعد مرور أشهر الزواج الأولى لاحظت اختلافًا في تصرفات زوجها حتى تحول الأمر إلى الشك فأخذت تراقبه حتى انتهى بها المطاف لتمسك به وهو في الفراش إلى جانب إحدى العاهرات، كان ذلك المشهد بمنزلة الصاعقة بالنسبة إلى دينا، ولم يتوقف الأمر عند

ذلك بل أصيبت باضطراب نفسي شديد وانتهى بها المطاف مريضةً نفسيةً في إحدى المصحَّات، وبدأ يوسف في زيارتها حينما علم بالأمر فأصبح يذهب كل خميس إلى المصحة لزيارتها، فيقول الأطباء إنها تتحسن عندما تختلط بالعالم الخارجي وتتذكر سنوات طفولتها، وأنه أخفى ذلك الأمر عنها حتى لا تشعر بالغيرة، فسألته شروق عن اسم تلك المصحة فأجاب يوسف بأن اسمها مصحة الأمل للأمراض النفسية، لم تُحدث تلك الكلمات أي تغيير في العلاقة بينهما بل جعلت شروق تقترب أكثر من ذلك الإنسان النبيل، أخبرت شروق يوسف أن والدها عمل في إحدى المصحات النفسية والتي كانت تُدعى مصحة الزهور، وأنها تعرف القليل عن المرض النفسي وأنها لا تمانع في زيارته لصديقته دينا ولكنها تريد أن يحضر الحفل السنوي الذي ستقيمه الشركة يوم الخميس المقبل فسوف تحصل فيه شروق على جائزة موظفة الشهر فأخبرها أنه سوف يكون موجودًا معها في ذلك اليوم، مرت الساعات على جلوسهما على الصخرة وكان أحمد يقف في نهاية الطريق ينظر إليهما في حزن شديد؛ فلقد اكتشف أخيرًا السبب وراء تغيُّر شروق، ظل واقفًا هناك يشعر بالحسرة والخذلان، مثل ذلك العجوز الذي أفنى حياته في العبادة ومات سكرانًا للمرة الأولى، هكذا هي الحسرة وهذا ما كان يشعر به أحمد في تلك اللحظة، فبدأ يستدير ويرحل، ثم نهضت شروق وأخبرت يوسف أن عليها الرحيل وسارت في اتجاه المنزل في سعادة وفرحة شديدتين حتى صعدت إلى الغرفة وأغلقت الباب ووضعت إحدى أسطوانات الموسيقى كُتب عليها راي

تشارلز وأخذت ترقص وتتمايل مع الموسيقى وأخذ فستانها الأزرق الرائع في الارتفاع كأنما يدفعها إلى الطيران وكأن الكون أصبح ضيقًا ولا يتسع لسعادة تلك الفتاة.

***

ابتعادنا عن البشر لا يعني كرهًا أو تغيُّرًا

العزلة وطن للأرواح المتعبة.

أرنست همنغواي

الفصل الثالث

"لم أكن أعرف"

في تلك الليلة جلس وحيدًا في غرفته وأخذ يحطم كل شيء حتى تلك الكمان التي طالما تعلَّق بها، وأخذ يتذكرها وهي تبتسم في وجه يوسف، وتقترب منه وتعانقه كان ذلك الشعور كفيلًا بأن يحطم صورة الإنسان المتماسك التي كانت تظهر دائمًا على أحمد، فلقد كان منهارًا في تلك اللحظة، كان يُفضِّل أن يموت على أن يراها في أحضان رجل آخر، وبعد أن حطَّم معالم الغرفة وشوَّهها جلس على ركبتيه في منتصف الغرفة وأخذ في البكاء كالطفل الصغير، وأحس أن الهواء لم يعد يصل إلى تلك الغرفة، شعر وكأن الجدران تقترب منه بشدة لتجعل الغرفة تبدو كالسجن فقرر أن يخرج إلى الحديقة لكي يستطيع التنفس، فنزل عدة درجات ومرَّ بساحة فارغة ثم نزل ثلاث درجات أُخرى فأصبح في الحديقة، نظر إليه حارس البوابة ونظر هو أيضًا إليه وكأنه يقول في داخله: نعم أنا محطَّم الآن، ثم أخذ يتجول في أرجاء الحديقة الصغيرة ويقطف بعض الزهور حتى رأى سيارة ياسمين من خلف السور الحديدي فحدَّث نفسه بصوت عالٍ متسائلًا: ما الذي أتى بياسمين الآن في هذه الساعة المُتأخرة؟ فاقتربت من البوابة ونظر إليها الحارس ثم

فتح البوابة الحديدية، فترجلت ياسمين من سيارتها في هدوء ثم ألقت التحية على الحارس ودخلت إلى الحديقة وهي تبتسم لأحمد، كانت ياسمين تمتلك عينين بنيتين وشعرًا طويلًا لا يختلف كثيرًا عن لون عينيها وترتدي قميصًا أبيض أدخلت أطرافه في البنطال الأسود وحذاءً ذا كعب عالٍ ومعطفًا أسود طويلًا وأخذت تتحرك في اتجاه أحمد قائلةً:

- مضَّايق إنك شوفتني ولا إيه!! أمشي طيب؟

- لا طبعًا بس استغربت عشان الوقت متأخر

- أنا كنت بتمشَّى شوية بالعربية ولمَّا شوفتك في الجنينة قولت أسلم عليك ونشرب حاجة دافية سوا ولَّا انت بخيل؟

ابتسم أحمد وأخذا يسيران إلى جانب بعضهما بعد أن طلبت ياسمين من الحارس أن يحضر لهما كوبين من الشاي الساخن، وأخذت تخبر أحمد أنها حقًّا تشعر بالسعادة حين توجد إلى جانبه وأنه شخص رائع ولكنه لا يعرف مدى روعته، ثم جلسا على بعض الصخور على البحر؛ فلقد كان المبنى الذي يسكن فيه أحمد يطل من جانبه على البحر وكان فعلًا يشبه المتاحف القديمة كما كان يخبر شروق، وأخذا يتبادلان الحديث وأخرجت ياسمين هاتفها وأخذت تشغل موسيقى سامفيل يرفينيان فنظر إليها أحمد وابتسم:

- من إمتى ده؟

- عشان انت بتحبها

- هي كمان بتحبها

- انت ليه مصمم تحب شروق، إشمعنا هي يعني؟

- من فترة كنت بحب بنت، كانت هي كل حياتي كانت زميلتي في الجامعة وهي كمان كانت بتحبني يمكن أكتر ما كنت بحبها كمان، كنا لسه صغيرين وكنت طايش وكان ليا علاقات كتير جدًّا، وكنت عارف إن العلاقات دي بتضايقها، كان اللي يشوفنا يقول إنها بتحبني وإني مبحبهاش، بس في الحقيقة بالرغم من كل حاجة كنت بعملها كانت هي كل حياتي، كنت بطمن بوجودها وكنت شايف كل حاجة عبارة عنها

- بس انت كنت بتخونها

- مفيش راجل مش خاين أو على الأقل مبيحس إنه محتاج يعرف ست جديدة

- بس دي بردو خيانة

- أنا عارف إنها خيانة بس مكنتش أعرف إنها هتخليها تنتحر

- تنتحر؟!

- كانت دايما بتهددني وتقولِّي إنها هتنتحر لو مبعدتش عن كل اللي أعرفهم، لكن مكنتش بصدق، كنت شايف كلامها عبارة عن تهديد وبس، وفي يوم من الأيام كانت محتاجاني جدًّا، في اليوم ده بالتحديد أخوها اتوفى وكانوا الاتنين قريبين جدًّا من بعض فمقدرتش تتحمل خسارته، حاولت تكلمني كتير في اليوم ده بس مكنتش برد عشان طبعًا كنت مع واحدة تانية فقررت إنها تنتحر، ومن ساعتها وانا بخاف أقرب من أي حد، حسيت إني زبالة وإن حياتي ملهاش معنى، عديت بفترة

صعبة جدًّا ومنكرش إني لسه بعدي بالفترة دي، لحد ما شوفت شروق، هي الوحيدة اللي حسستني إن الحياة ليها طعم وإن في فرصة تانية عشان الواحد يعيش.

– الله يرحمها، بس زي ما شروق قدرت تخرجك من اللي انت كنت فيه أكيد في بنات كتير تقدر، أحمد انت شاب مثقف وفي مليون بنت تتمناك حاول تنسى شروق وأظن يعني اللي يتخطى مشكلة زي مشكلتك يقدر يتخطى موقف بسيط زي اللي بينك وبين شروق

– هحاول، أنا مصدَّع جدًّا معكيش برشامة صداع

– معايا، اتفضل

يمر به الحارس وهو يحمل أكواب الشاي فيأخذ أحمد القرص الأبيض ويرتشف بعض الشاي، ويشكر ياسمين على ما تفعله من أجله وعلى وجودها إلى جانبه حين يحتاج إليها.

– عارف بقي أنا نفسي في إيه؟

– نفسك في إيه؟

– نفسي أقلع الجزمة وأجري على البحر

– بس كده

يشير أحمد إلى ياسمين بخلع الحذاء ويخلع حذاءه الذي يشبه أحذية المنزل وينهض ويمد يده إلى ياسمين، فتخلع حذاءها وتضع الحقيبة إلى جانبها وتقوم بخلع المعطف وتمسك بيد أحمد وتقف ويبدآن بالركض على الصخور والرمال أمام البحر حتى تبتلَّ أقدامهما وتلف

ياسمين عدة لفات وهي تنظر إلى السماء باسطة زراعيها إلى البحر ويقلدها أحمد حتى يسقط الاثنان إلى جانب بعضهما من أثر الدوران ويضحكان وينظران إلى السماء، كانت النجوم ساطعة في تلك الليلة وكان القمر يسترق النظر إليهما مشيرًا إلى الأمل، دائمًا ما يكون هناك أمل، لقد خلق الله الحياة والحب والأمل، جعلنا نحب لنحيا ونحيا لنحب، فلنشكر الله على نعمة الحب.

***

ظل يحدِّق في نصف القلب وهو يسير إلى جوار البحر، كان يرتدي قميصًا أبيض اللون وبنطالًا أزرق جينز ومعطفًا أسود طويلًا وحذاءً أسود ويحمل على ظهره حقيبة سوداء، ظل يسير حتى وصل أمام بوابة حديدية لإحدى المباني ذات الطابقين وعُلِّقت أعلى البوابة لافتة ضخمة كُتب عليها مصحة الأمل للأمراض النفسية، وحين وصل أمام البوابة فتح عامل البوابة له الباب وألقى عليه التحية ثم دخل إلى حديقة متوسطة المساحة، في إحدى زواياها كانت هناك طاولة ضخمة يقف أمامها العديد من الأشخاص ينظرون إلى الطاولة ويديرون ظهورهم إلى يوسف الذي كان ينظر إليهم، وكان جميع الواقفين حول الطاولة يرتدون أزياء زرقاء اللون تميل إلى اللون السماوي، وحول معاصمهم يلتف شعار المصحة الذي يُكتب عليه حالة المريض وتاريخ وصوله إلى المصحة، وكان ذلك الجمع عبارة عن بعض السيدات والرجال من مختلف الأعمار، وفي الزاوية الأخرى على سلم المبنى جلست فتاة في

العقد الثاني من عمرها تحمل عينين زرقاوين وشعرًا أصفر لامعًا يميل إلى لون الذهب وقوامها نحيف إلى حدٍّ ما، وكانت تمسك في يدها كتاب كافكا على الشاطئ لهاروكي موراكامي، وحين نظرت إليه تركت الكتاب من يدها وهُرعت إليه وقامت بعناقه عناقًا يشبه كثيرًا لقاء صالات الوصول في المطارات وأمسك بيدها بعد أن وضع نصف القلب في جيب المعطف وجلسا على السلم، كان المبنى مكونًا من طابقين، يقع الطابق الأول بعد عدة درجات من السلم وفي داخل الطابق الأول يوجد سلم ولافتة موضوعة على حافة السلم، كُتب عليها: "إلى الغرف الثلاثين" وفي منتصف الدور الثاني من الخارج تقع شرفة صغيرة تطل على الحديقة، جلسا معًا يتحدثان نحو ساعة..

كان في تلك المدة دائمًا ما يشرد وتعيده دينا إلى الواقع بسؤال.

– آه قريتها، وعجبتني عشان كده جبتهالك، إيه مش عجباكي ولا إيه!

_لا عجباني، بس مش فاهمة ازي إنسان يعيش بنص طيف.

– لما الإنسان بيخسر الحاجة اللي بيحبها بيحس إن روحه مش، بيبقى مهزوم ووحيد، والكاتب هنا عبر عن المشاعر دي بإن طيف الشخص مش كامل.

– امممممم، المهم انت عامل إيه، والبنت اللي حكيت لي عنها عاملة إيه؟

– اتكلمنا أخيرًا وبقينا أصحاب وقريب ممكن نتجوز. يقولها يوسف وهو يضحك.

- تعرف إني بحسدك.

- على إيه!

- إنك قدرت تكمل بالرغم من اللي حصل معاك من حبيبتك اللي اتخلت عنك مع إني متأكدة إنك بتحبها.

- آه طبعًا بحبها مش معنى إننا مكملناش إني أكرهها، كل واحد في الدنيا عنده أسباب للبعد ولازم كلنا نحترم أسباب بعض مش في البعد بس حتى في الخيانة.

- تفتكر هييجي عليا يوم وأقدر أكمل أنا كمان؟

- طبعًا، إنتي طول عمرك أقوى مني وطالما أنا قدرت يبقى أكيد هتقدري

ينظر يوسف إلى الطاولة وإلى الأشخاص الملتفِّين حولها.

- مالك بتبصلهم كده ليه!

- كل دول بقى مجانين؟

- يوسف مفيش حد هنا مجنون، الناس دول أعقل ناس ممكن تقابلهم، هما بس مقدروش يتعايشوا مع العالم اللي برا فقرروا يبقوا لوحدهم.

- يعني مجانين.

- طب ما انت كمان مجنون زيهم.

- ماشي يا ستي، قوليلي يا دينا هما واقفين كده ليه في عزومة عندهم ولا إيه!

- لا يا خفيف ده تقريبًا كده عيد ميلادي.
- لا يا شيخة، طب ليه مقولتيليش عشان أعمل حسابي.
- هو انت أصلًا مركز معايا؟ انت مع حبيبة القلب وناسينا خالص.
- لا مقدرش وعلى العموم ملحوقة، كل سنة وانتي طيبة.
- وانت طيب.
- ينفع أسأل سؤال تاني ولَّا هتزعلي.
- اسأل يا سيدي، اللهم طولك يا روح.
- ازاي هنا في ٢٩ أوضة وانتوا ٣٠ مريض.
- يا خفيف، معلش أصل المريض الـ ٣٠ تايه، لما نلاقيه هبقى أقولك.
- ماشي يا دينا ماشي، ينفع أدخل الحمام بقى.

يستأذن يوسف من دينا ويصعد عدة درجات ثم يدخل إلى المبنى ويمر بجانب اللافتة المكتوب عليها إلى الغرف الـ ٣٠ ثم ينعطف يمينًا ويمر بجانب مكتب كُتب عليه: "مكتب مدير المصحة" ومن ثم مكتب آخر كُتب عليه: "مكتب الطبيب المعالج" وأخذ يسير حتى وصل إلى نهاية الممر ودخل إلى المرحاض، ثم عاد ليجلس إلى جانب دينا وكان الجميع لا يزالون واقفين حول الطاولة ويتحدث بعضهم إلى بعض وبجانبهم بعض المُمرِّضين والحرس، جلس يوسف وأشعل سيجارة، وكانت تبدو عليه علامات القلق والحيرة فلاحظت دينا ذلك الأمر، إلَّا أنه تهرب من الإجابة عن أسئلة دينا حول ما يجري معه واستأذن يوسف

ليغادر لإجراء بعض المكالمات ثم يعود فوافقت دينا دون أن تفهم ما الذي يحدث، وخرج يوسف من البوابة وقامت دينا وانضمت إلى الجمع في فرحة شديدة، وبعد ساعة أو أقل عاد يوسف إلى المصحة وهو يحمل في يده حقيبة هدايا كبيرة ودخل وأعطى دينا الحقيبة وأخبرها ألَّا تفتح الحقيبة إلا عندما تكون بمفردها، ثم غادر المصحة بعد أن ألقى نظرة أخيرة على الواقفين حول الطاولة.

***

وأخذت الأيام تمر وأخذ يقابل شروق يوميًّا ويتحدثان ويجلسان على الصخرة ويستمعان إلى الموسيقى وصار يهتم بأدق تفاصيل حياة تلك الفتاة حتى إنه أصبح المسؤول عن إعطائها أقراص الصداع تلك، حتى جاء الخميس الموعود الذي وافق عيد ميلاد شروق التي سوف تتم فيه الحادية والعشرين من عمرها، كانت شروق قد أخبرت يوسف أنهم سوف يقيمون حفل عيد الميلاد بمنزل أحمد نظرًا إلى إصرار أحمد على ذلك، وأن الحديقة هناك جيدة لإقامة مثل تلك الحفلات، وأخبرته أنها سوف تذهب مبكرًا إلى هناك بصحبة عم سلامة وأبيها للتجهيز وأن ياسمين صديقتها سوف تمر به لتنقله إلى مكان الحفل، وبالفعل في تمام الثامنة مساءً مرت ياسمين بمنزل يوسف وركب السيارة واتجها إلى مكان الحفل، وفي الطريق تبادلا الابتسامات من حين إلى آخر واستمعا إلى الموسيقى، وكان القلق يسيطر على أجواء الطريق وكان الصمت يتصدر المشهد حتى بدأت ياسمين بالحديث.

- أكيد ده يوم مهم بالنسبالَك؟

- أكيد طبعًا، وبالنسبالِك إنتي كمان.

- أكيد.

***

كانت تلك العبارات القصيرة هي كل ما صدر منهما وعاد القلق يسيطر على المشهد، فنظر يوسف إلى خارج النافذة مستمعًا إلى الموسيقى شاردًا كما هي طبيعته، وأخذت ياسمين تنظر إليه من حين إلى آخر حتى إنها لاحظت تلك الرعشة التي دائمًا ما تسيطر على يده، حتى وصلا إلى المبنى وترجَّلا من السيارة، وفتح الحارس البوابة وألقى التحية عليهما ودخلا إلى الحديقة، كانت الزينة تملأ المكان والأضواء الخفيفة تنير الحديقة وتضيف إلى المنظر الكثير من الراحة النفسية، وحين دخلا تهافت الجميع على إلقاء التحية عليهما والترحيب بهما، وكانت شروق أول من فعل ذلك ثم أحمد ثم الأستاذ معتز ثم عم سلامة وفؤاد والد شروق، وكانت هناك طاولة يجلس إليها شخص واحد في زاوية الحديقة، ولم تكُن ملامحه واضحةً بسبب الإضاءة الخافتة ولكنه كان يرتدي بدلةً سوداء وحذاءً أسود لامعًا وساعةً فضيةً تعكس الإضاءة، حاول يوسف التحديق فيه لكي يلاحظ ملامحه فهو يبدو له وكأنه يعرفه، ولكن شروق قاطعت ذلك وسحبت يوسف من يده ليرقصَ معها، كانت ترتدي الفستان الأزرق الذي يجعلها سندريلا، فأخذ يرقص معها وأخذ أحمد ينظر إليهما في حسرة حتى ذهبت ياسمين إليه

ومدَّت يدها إليه لترقص معه، وأخذ الجميع في الرقص والغناء وتناول الحلوى، وذهب عم سلامة إلى الطاولة في الزاوية وجلس إلى جانب الشخص الغامض وجلس إلى جوارهما فؤاد وأخذوا ينظرون إلى الجميع ويبتسمون، وفجأة ودون سابق إنذار سقط يوسف مغشيًّا عليه، أخذ الجميع ينادون باسمه في خوف شديد وكان هو ينظر إليهم حتَّى تلاشت الرؤية تمامًا وفقد الوعي.

***

أخذت أصوات الانفجارات تتعالَى وتتصاعد والصراخ يملأ المكان وأصبحت الدماء تتصارع لتملأ رمال الصحراء، حاول أنْ يفتح عينيه ولكن الغبار المتصاعد والدخان منعه من رؤية أي شيءٍ، كل ما كان يسمعه هو صوت الجنود يصرخون باسمه وباسم مراد، وتوقف إطلاق النار وتعالَى صوت محركات السيَّارات وهي تغادر المكان، وذهب إليه أحد الجنود وقام بإسناده إلى صخرة وقام بوضع ضمادات على يده المبتورة التي كانت تنزف بشدة، كانت الرؤية مشوَّشة للغاية وكان يردد اسم مراد، فأجابه الجندي بأنَّ مرادًا قد استُشهد فأخذ يصرخ باسمه ويتعالى صراخه حتى فاق صوت ارتطام الأمواج بالصخور، وأخذ ينظر إلى البحر محاولًا حجب ذلك المشهد عن مُخيِّلته، فنظر إليه الجميع مجددًا

– حمزة بيصعب عليا جدًّا يا فريدة. تقول ذلك إلهام وهي تلقي إحدى الأوراق على الطاولة

تقول فريدة:

- مسكين، خسر أعز أصدقائه وخسر إيده كمان

- الحرب دايمًا فيها خساير بشرية بس الأفظع منها الخساير النفسية، تعرفوا إن معظم الجنود اللي رجعوا من الحرب العالمية التانية كانوا مرضى نفسيين وفي منهم كمان اللي اتحوِّلوا لسفَّاحين بسبب الجرايم اللي ارتكبوها في الحرب، مستشفيات بريطانيا كانت مليانة بالعساكر الشباب اللي خسروا عقلهم في الحرب، اعذروه يا جماعة اللي شافه مش قليل.

كانت تلك كلمات كمال عن الحرب، أما بالنسبة إليَّ فلا أعرف لماذا تقوم الحروب؟

بأي منطق يقتل الإنسان إنسانًا مثله دون رحمة أو شفقة، أعلم جيدًا أن هناك حروبًا من أجل الدفاع عن الوطن مثل تلك الحروب التي خاضتها مصر ضد إسرائيل أو كتلك التي تشنها على الإرهاب ولكني لا أتحدث عن تلك الحروب، أنا أتحدث عن الحروب العالمية فهناك عدة طرق تجعل من الإنسان بطلًا دون أن يدمر الأرض، كيف لشخص واحد أن يتسبب في مقتل ٦٠ مليون إنسان إرضاءً لغروره كما فعل هتلر! لماذا لا يأمر جنوده بإلقاء السلاح وزرع الورود! لماذا دائمًا نزرع الأشواك ونناجي الله لكي تطرح تلك الأشواك ورودًا! من وجهة نظري أعُدُّ الحروب التي تشبه تلك الحرب هي التسلية الوحيدة للقادة الذين يسمحون للشعوب بالمشاركة فيها..

أخذت أضواء البوابات تقتحم زجاج نافذته وهو ينظر إلى بوابة الإسكندرية، كانت أجواء الصَّخَب والشجار تسيطر على السيارة، نظر يوسف إلى والديه في حزن ويأس، أخذت عجلة القيادة في التأرجُح بشدة يمينًا ويسارًا، وانقلبت السيارة واصطدمت بالأرض عدة مرات، وغاب عن الوعي وأفاق على صوت سيارات الإسعاف وأبواق الشرطة، في تلك اللحظة أفاق يوسف من غَيْبوبته بسرعة واعتدل وأخذت أنفاسه تتسارع، بدأ ينظر حوله وكانت الرؤية مشوَّشة فأخذ يتأمل الفراش الذي كان عليه فلقد كان سريرًا حديديًا لا يشبه فراشه في غرفته التي يعرفها، فتعجب من الأمر وأخذ ينظر إلى ملابسه التي كان يرتديها في تعجُّب، كان يرتدي بنطالًا أزرق من القماش الناعم وسترةً زرقاء من الخامة نفسها، وحول معصمه وُضع شعار مكتوب عليه "مصحة الأمل" وكُتب إلى جانب تلك الجملة: "يوسف عبد الحميد النجار، تشخيص الحالة: هلاوس بصرية، تاريخ الدخول ٣-٦-٢٠١٨" فصعق مما قرأ وأخذ يحاول النهوض ولكن هناك شيئًا يجعل جسده ضعيفًا فهو لا يستطيع تحريك أي جزء من جسده سوى عينيه التي لا ترى بشكل واضح أيضًا، فأخذ يتأمل الحجرة التي كانت بيضاء تمامًا وفي أعلى الحائط أمامه وُضعت ساعة وبعض لوحات الزهور، وأخذ يمر بنظره على المكان برغم تشوُّش الرؤية فانخفض بنظره إلى أسفل ليجد شخصًا يجلس على أحد المقاعد الخشبية، يرتدي بدلةً سوداء وعليها معطف الأطباء وعلى أحد جانبي المعطف عُلِّق شعار كُتب عليه: "الدكتور فؤاد" فنظر إلى وجه الشخص مباشرةً ليجد أنَّه

فؤاد والد شروق، وعلى الرغم من أن الرؤية لم تكن قد اكتملت بعدُ استطاع أن يتذكر ملامح الشخص الذي كان قد رآه بالأمس، إنه هو والدها، ما الذي يحدث؟ لماذا يرتدي فؤاد تلك الملابس؟ ومن الدكتور فؤاد؟ وما الذي قرأته على يدي هذا؟ ظل يوسف يسأل نفسه تلك الأسئلة وهو ينظر إلى الشخص الجالس أمامه.

***

– متحاولش تقوم يا يوسف عشان متقعش زي كل مرة، استنى ٥ دقايق وهتقدر تتحرك براحتك، يكون مفعول المخدر راح، مالك يا يوسف مستغرب من إيه؟

– انت مين؟

– أنا الدكتور فؤاد.

– دكتور؟.. دكتور ازاي مش انت والد شروق.

– هههههه، لا أنا مش والد شروق، بس أوعدك لو جبت بنت هسميها شروق يا سيدي طالما انت بتحب الاسم ده، إيه بقى يا عم مش ناوي تخف وترجع زي الأول وتعيش حياتك؟

يمسك بأحد الملفات الورقية ويكمل حديثه وهو ينظر إلى الأوراق:

– يوسف انت بقالك هنا ٦ شهور دخلت هنا بتاريخ ٣-٦-٢٠١٨ كان عندك حالة انهيار عصبي شديدة تميل إلى الهلوسة العرضية، سبب دخولك هنا حادث تصادم سيارة أدَّى إلى صدمة نفسية شديدة.

- صدمة إيه؟ وحادثة إيه؟ الحادثة دي كانت من ٦ شهور، أنا جيت هنا ازاي وبعمل إيه هنا.

حاول يوسف النهوض فكاد أن يسقط حتى استدعى الدكتور فؤاد أحد المُمرِّضين ليساعد يوسف على الجلوس في فراشه، فنظر يوسف إلى المُمرِّض في دهشة؛ فقد كان المُمرِّض ضخم البنية؛ كان سمينًا للغاية وعلى ملابسه عُلِّق شعار كُتب عليه: "المُمرِّض سلامة" فنظر يوسف إلى وجهه ليجد أنه العجوز نفسه الذي عرَّفته عليه شروق بالأمس على أنه عم سلامة صديق والدها، أيُّ والد هذا؟! إنَّه لم يعد يستطيع فهم أي شيء، كانت الأفكار تتصارع في رأسه لتحدث له صداعًا شديدًا للغاية، فنظر إليه المُمرِّض وابتسم وربت على كتفه.

- صباح الخير، ازيك يا يوسف.

- انت مين؟ أنا عايز أخرج من هنا، ردوا عليا أنا جيت هنا ازاي.

- إهدى يا يوسف أنا هفهمك كل حاجة، انت بعد ما دخلت هنا بكام يوم بدأنا نشخص حالتك وندیك الأدوية اللازمة وكنا فاكرين إنك هتخف بسرعة وتتعايش مع اللي حصل لكن مع الوقت بدأت تخترع قصص وتعيش جواها وتحكي عن بنت اسمها شروق وإنك بتقابلها على صخرة على البحر وإنك بتحبها وهتتجوزوا، وإني أنا أبقى والد البنت دي وإن عم سلامة يعرفها كويس وساكن جنبها وحاجات كتيرة أوي، وفضلت تخترع في القصص وتعيش جواها وتقول إن في شاب اسمه أحمد بيحب نفس البنت وإنك مش هتسمح له إنه ياخدها منك،

ده كلام الدكتور اللي كان بيعالجك في الأول لحد ما وصلت لمرحلة "gouska"
_gouska!!!

- دي مرحلة تطور الهلاوس البصرية والسمعية بيتخيل فيها المريض إن في شخص قدامه وبيبدأ يتكلم معاه وبيحس إن الشخص ده حقيقي ودي مرحلة ممكن تؤدي إلى الجنون التام.

- انت بتقول إيه! أنا مش مجنون، المصحة دي اسمها الأمل صح!

- أيوه صح.

- أنا كنت باجي هنا عشان أزور دينا صاحبتي، أنا مش مجنون، أنا مدخلتش هنا كمريض، أنا باجي كزائر وبس، فين دينا؟ فين دينا وهي تقولُّكم الحقيقة

- إهدى طيب إهدى، دينا مش صاحبتك دينا بقت صاحبتك من فترة قريبة، انت أول ما جيت هنا كنت منعزل عن كل المرضى وحتى الدكاترة والمُمرِّضين ومع الوقت بدأت تقرب من دينا وتتكلم معاها وتحكي لها عن حياتك وهي كمان تحكي لك؛ وعشان كده خصصنا يوم الخميس عشان تقعدوا سوا طول اليوم طالما حالتكم بتتحسن لما بتتكلموا، ومع ذلك حاضر هجيب لك دينا، هات دينا يا عم سلامة.. وعلى فكرة يا يوسف الصخرة اللي اتكلمت عنها انت موجودة فعلًا بس هنا في المصحة مش برا.

يغادر عم سلامة الغرفة عدة لحظات كان فيها يوسف قد ضم ركبتيه إلى صدره بكلتا يديه وجلس أمام الدكتور فؤاد وأخذ ينظر إلى الغرفة في خوف، وأخذ الدكتور فؤاد يحاول تهدئته حتى عاد عم سلامة وهو يصطحب دينا تلك الفتاة ذات العيون الزرقاء والشعر الذهبي اللامع، كانت ترتدي الملابس نفسها التي يرتديها يوسف وحول معصمها الشعار نفسه، دخلت وهي تنظر إلى يوسف بابتسامة خفيفة وحين رآها يوسف نظر إليهم نظرة الغريق الذي يتعلق بالقشة لينجو من الغرق، ولكن كان هناك صداع شديد يدمِّر رأسه تدريجيًّا:

_قوليلهم يا دينا، قوليلهم الحقيقة دول فاكرِنِّي واحد من المجانين اللي هنا

- يوسف مفيش حد هنا مجنون، الناس اللي هنا أعقل ناس ممكن تقابلهم، هما بس مقدروش يتعايشوا مع العالم اللي برا فقرروا يبقوا لوحدهم، إنت كمان مش مجنون، إنت بس عندك شوية مشاكل زَيِّنا وهتخف وهتبقى كويس وهنخرج من هنا وهنفضل أصحاب على طول.

- حتى انتي بتقولي زيهم، إنتوا أكيد متفقين سوا أكيد دي مؤامرة.

اقتربت دينا من يوسف وهي تبكي على حاله، كانت دموعها تسيل كالطفلة وكان هو قد بدأ في البكاء فاقتربت منه ووضعت رأسه على صدرها وأخذت تحدثه بكلمات تحاول بها تهدئته.

- قوليلهم الحقيقة يا دينا، قوليلهم مش انا جيت أزورك الخميس اللي فات وكان ساعتها عيد ميلادك.

- أيوه صح الخميس اللي فات كان عيد ميلادي.

- طب احكيلهم وعرفيهم إني جيت أزورك زي ما باجي كل خميس.

- يوسف انت مجيتش يوم الخميس لإنك أصلًا موجود هنا طول الوقت، طب مش انت سألتني ساعتها ازاي في ٣٠ أوضة وفي هنا ٢٩ مريض؟ حتى أنا ساعتها ضحكت وقولت لك إن المريض الأخير تايه ولما نلاقيه هقولّك.

يومئ يوسف بالموافقة على ما تقوله دينا.

- أنا ساعتها كنت فاكراك بتهزر ومعرفتش أرد أقولك إيه، يوسف انت المريض رقم ٣٠ انت كنت بتسأل على نفسك.. وعلى فكرة وحشني أوي إنك تعزف كمانجا تحت شباك أوضتي بالليل زي ما كنت بتعمل الأول.. أنا آسفة يا يوسف.

ينظر يوسف إلى باب الغرفة المفتوح والذي يقع إلى جانب عم سلامة ليرى لافتة معلقة عليه كُتب عليها الغرفة رقم ٣٠، فيبدأ بالصراخ محاولًا النهوض فيمسكه المُمرِّض سلامة بكلتا يديه وتخرج دينا وهي تبكي ويقوم الدكتور فؤاد بإعطائه حقنة مهدئة فيغُطُّ في نوم عميق.

وأخذت الأيام تمر عليه سريعًا في تلك المصحة، كان يحاول التماسك ولكن في داخله تصاعد بركان من الأسئلة والحيرة الشديدة اللتين جعلتا منه شخصًا متسائلًا دائمًا، فكان يشعر أحيانًا أن ما يمر به هو عبارة عن حلم ليس إلَّا، وأحيانًا أخرى كان يشعر أنه يعيش الواقع وأن عليه أن يتعايش حقًّا مع فكرة أنه مريض نفسي، وأخذ يمضي الأيام والليالي داخل غرفته دون أن يغادرها أو يفتح نافذة غرفته وكان يأخذ الأدوية بانتظام ويحاول النوم ويقلل من التدخين ولا يعطي نفسه مجالًا كبيرًا ليفكر فيها أو يتذكرها، وكانت دينا تزور غرفته دائمًا بصحبة المُمرِّض سلامة وتحاول الحديث إليه لكنه كان دائمًا ما يرفض الحديث إليها، ولكن في داخله كان البركان يبدأ في الهدوء ليترك صمتًا رهيبًا لا يستطيع نداء الاستغاثة الذي يحدثه عقله أن يكسر ذلك الصمت أبدًا، حتى قرر الخروج من غرفته والتنزه في الحديقة والجلوس على الصخرة وإشعال سيجارة، وهناك وبينما كان يجلس ويتذكر لقاءهما الأول وتلك الكلمات بينهما وذلك العناق الذي جعل منه طفلًا صغيرًا، جلس إلى جواره شخص يرتدي ملابس المرضى وقال له إنه معتز، وسأله ألا تتذكرني؟

- أستاذ معتز؟؟

- أيوه أنا معتز. ازيك يا يوسف عامل إيه؟

نظر إليه يوسف وإلى ملابسه وأخذ يفكر ويخبر نفسه:

لا تقول له إنه هو مدير شروق في العمل، فكما ترى إنه يرتدي الملابس نفسها التي ترتديها، إنه مريض مثلك لا تفسد الأمر من جديد.

- مالك يا يوسف ساكت ليه؟ طب مش عايز تخرج من هنا؟

نظر إليه يوسف في حسرة وحزن:

- أخرج ليه؟

- عشان تقابل شروق!

نظر إليه يوسف في دهشة، فأشار إليه معتز إلى الفناء خلف المبنى إشارةً تعني أنه يريد مقابلته هناك، وغادر معتز تاركًا يوسف في حيرة شديدة لم يشعر بها من قبل في حياته، وبعد عدة لحظات سار يوسف خلفه إلى الفناء الخلفي، وهناك أخبره معتز أنها مؤامرة دبرها له عمه كمال لكي يحصل على الميراث بالاتفاق مع الدكتور فؤاد، وأن الدكتور فؤاد هو صاحب الفكرة حيث اتفق مع كمال أن يحضرا يوسف إلى تلك المصحة ويقنعاه بأنه مريض وأنه موجود هنا منذُ عدة أشهر، ويقوم فؤاد باستخراج الأوراق التي تثبت ذلك وإعطائها لكمال مقابل ١٠ ملايين جنيه، وأن معتزًّا سمع تفاصيل تلك الصفقة حين كان يمر إلى جانب غرفة فؤاد وأن كمالًا عم يوسف أخبر الدكتور فؤاد أن يوسف سوف يكتشف الأمر لأنه دائم التردد على تلك المصحة لزيارة صديقته دينا، ولكن فؤادًا طلب منه أن يُحضر يوسف إلى الفناء الخلفي عبر طريق آخر حيث إنه لم يدخل إلى ذلك الفناء من قبل ومع الإضاءة الخافتة والصخب الموسيقي لن يستطيع تحديد المكان خصوصًا بعد المخدر

الذي وضعه في تلك السيجارة التي أعطته ياسمين صديقة شروق إياها حين كانت تصحبه إلى الحفل وأنهم أقنعوا شروق بأن تقنعه بالحضور إلى هذا المكان ليحضر حفل عيد ميلادها وأنها سوف تقوم بذلك مقابل مبلغ من المال، وأنهم أقنعوا دينا بأنه مريض هنا منذُ مدة وأنه بحاجة إلى مساعدتها وأن عليها أن تقنعه بذلك حتى يستطيع الشفاء، ولأنها مريضة نفسية صدقت الأمر، وكان عليه هو أن يؤدي دور الأستاذ معتز لأنه كان ممثلًا بارعًا قبل أن يأتي إلى المصحة، وأضاف: إذا كنت تريد الخروج يا يوسف فعليك أن تقنع الدكتور فؤاد بأنك فعلًا مريض وسوف تتعافى، وحينها سوف يخرجك من هنا على الفور، وبعدها افعل ما تشاء ولكن عليك إخراجي من هنا بعد ذلك.

وبعد استماع يوسف إلى ذلك الكلام وافق على صفقة معتز؛ فليس هناك سبيل للرفض ما دام سيخرج ويثبت أنه في كامل قواه العقلية وينتقم من عمه ومن الدكتور فؤاد على ما فعلاه، قرر يوسف البدء في تنفيذ الخطة فورًا فذهب إلى الدكتور فؤاد وأخبره أنه يشعر بتحسن وأنه لم يعد يرى هؤلاء الأشخاص الذين تحدث عنهم سابقًا، وأنه لم يعد يرى تلك الفتاة التي تُدعى شروق، وأنها كانت قصةً اخترعها من خياله لكي يهرب بها من موت والديه فقرر الدكتور فؤاد أن يُخرج يوسف من المصحة وأعطاه رقم هاتفه لكي يعاود الاتصال به في حالة ما إذا بدأ يرى هؤلاء الأشخاص مجددًا، وخرج يوسف إلى العالم من جديد..

***

الحياة تقتلك في العشرين من العمر

والعالم يقوم بدفنك واستخراج شهادة الوفاة في

الستين من العمر

وبين تلك وذاك تحيا كالأموات دون شعور، دون

جدوى

علي صالح

الفصل الرابع

"من أجل النسيان"

كان يسير في الشارع وهو يشعر بكل كلمة تدور في رأسه، كانت كلمات معتز تعيد نفسها مرارًا وتكرارًا، كانت بمنزلة الصدمة بالنسبة إلى يوسف، وبعد سيره عدة خطوات بعد أن تسلَّم متعلقاته الشخصية أخذ يقلب في هاتفه لكنه لم يجد لهما أي ذكريات أو صور معًا ولم يجد رقم هاتفها فأخذ يسير حتى صعد بعض الدرجات ودخل إلى غرفته وأخذ يضع أغراضه ويخلع ملابسه، وجد أن حمامًا ساخنًا هو أفضل دواء قد يُسكِّن من ألم رأسه ويطرد ذلك الزحام منه لكي يستطيع التفكير من جديد فيما سيفعله في أمر عمه كمال..

***

ترك قطرات الماء تنساب على رأسه وجسده لتغسل همومه وأفكاره المشوَّشة والمتداخلة واستند إلى الحائط ونظر إلى المرآة أمامه وأخذ يتأمل الهالات السوداء أسفل عينيه ويتذكرها ويتذكر لقاءهما وعناقهما وشكل ابتسامتها حين تغلق عينيها، تذكر كل شيء تقريبًا بينهما حتى إنه تذكر ذلك المطعم الذي طالما جلسا فيه ينظران إلى البحر ويحتسيان

القهوة معًا فحدَّث نفسه بصوت عالٍ: لماذا لا أذهب إلى هناك؟ لعلي أراها من جديد!

***

ارتدى ملابسه والمعطف الذي كان يرتديه حين يقابلها وأخذ يسير بجوار البحر عدة خطوات ثم وضع يده اليمنى في جيبه وأخرج نصف القلب الذي أهدته إياه وتحرك في اتجاه طاولة يلتف حولها أربعة مقاعد يجلس عليها ثلاثة أشخاص وهناك مقعد فارغ، أخذ يقترب منهم وهو يبتسم فانتصب الجميع حين وصل إلى الطاولة كان الثلاثة أشخاص هم شروق وياسمين وأحمد، قابلوه بابتسامة عريضة وترحيب حار حيث احتضن شروق ومد يده ليلقي التحية على ياسمين ثم نظر إلى أحمد ومد يده إليه فأمسك أحمد بيده واحتضنه في عناق شديد ثم جلسوا إلى الطاولة، كانت الطاولة قريبة من البحر في حديقة صغيرة تحوي إضاءة خافتة وكانت تقريبًا هي الطاولة الوحيدة، فلم يكن المكان يعج بالأشخاص، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، وكان اليوم هو أحد أيام الشتاء فكانت الأمطار تهطل على مراحل، ولم يكونوا يكترثون لأمر تلك الأمطار، أشعل يوسف سيجارة وأعطى أُخرى لأحمد وظل الصمت يسيطر على المكان عدة لحظات حتى دخل أحد الأشخاص يرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا أسود وربطة عنق سوداء ويحمل في يده دفترًا صغيرًا وقلمًا وبدأ يسأل يوسف عمَّا يود أن يحتسي، فهل يحضر له كوبًا من الشاي يدفئه في تلك الليلة الباردة أم أنه

يريد قهوته التي اعتاد أن يشربها على الطاولة نفسها مدة عام كامل، فنظر إليه يوسف وأخبره أنه يريد احتساء قهوة خالية من السكر، فابتعد النادل بعد أن دوَّن ما طلبه يوسف ثم عاد وكأنه نسي شيئًا وبدأ يسأل شروق ثم ياسمين ثم أحمد عمَّا إن كانوا يريدون احتساء شيء آخر أم لا فأجابه الجميع بأنهم لا يريدون شيئًا آخر فرحل.

***

وهنا بدأ يوسف بالحديث:

- أنا مش عارف أشكركم ازاي على كل اللي عملتوه معايا، من غيركم مكنتش هقدر أوصل لهدفي.

- متقولش كده المهم إنك تكون كويس، وعلى فكرة وحشتني بجد، كانت تلك الكلمات تخرج من شروق في سعادة تامة.

- إنتو كمان وحشتوني جدًّا كلكم وحشتوني بجد، ثم نظر إلى أحمد وسأله: الفيديوهات وصلتك يا أحمد؟

- آه وعملت منها نُسخ كتيرة كمان وفي نسخة على تليفون ياسمين، وأشار إلى ياسمين فأخرجت هاتفها ووضعته في يد يوسف.

- ها.. الخطوة الجاية إيه؟؟ سأل أحمد يوسف.

- هنفذ اللي اتفقنا عليه، هنكلمه ونعرفه الحقيقة وساعتها مش هيبقى في إيده حاجة غير إنه يسمع كلامي وينفذ كل اللي هطلبه منه.

أخرج يوسف هاتفه وأخرج من جيبه ورقةً تحمل رقم هاتف كُتب أسفله: "الدكتور فؤاد"، وأخذ يتحدث إليه عبر الهاتف وأخبره أنه في حاجة إلى المساعدة فلقد عاد يرى هؤلاء الأشخاص من جديد، فسأل فؤاد عن مكان يوسف، فأخبره به وأغلق الهاتف وجلسوا ينتظرون وصوله ويبتسمون لبعضهم، وبعد عدة دقائق وصل فؤاد وهو يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق زرقاء، أخذ يسير وينظر إليهم في دهشة وحين وصل إلى الطاولة انتصب يوسف ونظر إليه بثقة، وبادله فؤاد النظرة ولكن في خوف وتوتر شديدين، فتخلى يوسف عن مقعده وجعل فؤادًا يجلس مكانه ودار حول المقعد الجالس عليه فؤاد واستقر خلفه ووضع يده على كتف فؤاد وانحنى ليحدثه في أذنه بصوت خافت ولكنه مسموع للجميع:

***

- طبعًا انت فاهم كل حاجة، بس ناقصك حاجات بسيطة هفهمهالك دلوقتي، الأول حابب أعرفك بشروق وياسمين وأحمد الناس اللي انت فضلت تقنعني إنهم مش موجودين، القصة بدأت لما كنت جاي أزور دينا صاحبتي في المصحة اللي حضرتك بتشتغل فيها، كان يوم عيد ميلادها واستأذنت منها عشان أدخل الحمام وعديت من جنب مكتبك، كان الباب مفتوح وسمعتك بتكلم شخص وبتقوله: "أيوه يوسف بييجي هنا يزور نزيله عندنا اسمها دينا بس انا مكنتش أعرف إنه ابن أخو حضرتك يا كمال باشا" فاستغربت وسألت نفسي: عمي بيعمل إيه

عندك؟ فوقفت أسمع وعرفت إنكم بتتفقوا سوا عشان أدخل المصحة وفي حفلة هتعملوها في الجنينة الصغيرة اللي في ضهر المبنى، وإنكم هتتفقوا مع شروق عشان تمثل إنه عيد ميلادها وتدخلني هناك وهتكونوا إنتوا في انتظاري، ومع الأضواء الخفيفة والدوشة والمخدر اللي ياسمين هتديهولي مش هقدر أحدد المكان بالظبط، وبعد ما أفقد الوعي تطلعوني الأوضة رقم ٣٠ وتقنعوني إني مريض وتبدؤوا تعالجوني بأدوية بتسبب الاكتئاب، وبعدين تبدؤوا تجهزوا الورق اللي يثبت كلامكم، وبكده عمي يقدر ياخد كل حاجة بالوصاية عليا وانت طلبت منه في المقابل ١٠ مليون جنيه، لما سمعت الكلام ده خرجت وجبت هدية لدينا عارف الهدية دي كانت إيه؟!

أخرج الهاتف الذي أعطته ياسمين إياه وشغَّل أحد مقاطع الفيديو والتي توضح أنها مصورة عبر كاميرا وضعت في الزاوية العليا للغرفة رقم ٣٠ حيث كان يوسف في فراشه وأمامه فؤاد الذي يخبره بتشخيص حالته ويقنعه بأنه مريض بالهلوسة البصرية والسمعية وفي مقطع الفيديو يدخل سلامة وإلى جواره دينا، أخذ يشاهد فؤاد المقطع وهو يخلع ربطة عنقه ويجفف عرقه الذي كان يملأ وجهه، وأشعل سيجارة في توتر وهو ينظر إلى يوسف وإلى الجالسين

- طبعًا انت عارف إني بالفيديو ده وبشهادة الشباب أقدر أخليك تقضي بقيت عمرك في السجن، وبشهادة دينا كمان لإني سبتلها ورقة شرحت لها فيها اللي هيحصل ونبهت عليها إنها تفتح الهدية وهي لوحدها، بس انا مش هعمل كده عشان أنا جدع، أنا هطلب منك حاجة لو عملتها

اعتبر مفيش حاجة حصلت وكمان هتاخد الفلوس اللي طلبتها، وهنفضل صحاب وحبايب طول العمر.

- حاجة إيه؟ يجيبه فؤاد في توتر.

- هتكلم كمال باشا وتقوله إنك جهزت الورق المطلوب وإنك هتستناه بكرة الساعة ١٠ الصبح في المصحة واطلب منه إنه يجيب المبلغ معاه وبمجرد ما يدخل مكتبك خدره وطلّعه الأوضة رقم ٣٠ وادينى ورق يثبت إنه مريض من سنتين وبكده نبقى خالصين، وأنا هبعتلك كل شهر مصاريف المصحة وخليه عندك بقى أهو تونسوا بعض، وعشان متعملش أي لعبة إحنا الأربعة هنجيلك قبلها وهنلبس لبس المرضى اللي عندك وهنفضل في الجنينة نراقب ونسمع اللي هيحصل.

- موافق يا يوسف بس اوعدني إنك مش هتودي الفيديوهات دي للنقابة.

- من غير ما أوعدك إحنا اتفقنا خلاص.

يرحل فؤاد بعد أن يلقي التحية على الجميع ويسير حتى يختفي من المشهد وينظر يوسف إلى ياسمين ويبتسم بينما تلاحظ شروق ذلك فتعلو وجهها ملامح التعجُّب.

***

وصل في الصباح إلى بوابة المصحة سيارة فخمة سوداء اللون خرج منها كمال يرتدي بدلة سوداء وربطة عنق حمراء اللون يحمل في يده حقيبة يدٍ كبيرة وألقى التحية على الحارس الذي فتح بدوره الباب أمام كمال، وأخذ يسير في الحديقة متجهًا إلى الدرج وهو ينظر إلى المرضى الذين كانوا يتنزهون في الحديقة وهم يرتدون الملابس نفسها ذات اللون الأزرق الفاتح وكان من بينهم يوسف وأحمد وياسمين وشروق ودينا تقف إلى جانبهم متخفين بين المرضى، وصل إلى الدرجات وبدأ بالصعود ودخل إلى مكتب فؤاد وجلس أمامه وأعطاه حقيبة اليد وكان فؤاد يختم بعض الأوراق على المكتب فنظر إلى كمال وضغط الجرس الموجود على جانب المكتب وطلب قهوة لكمال، وبعد أن وُضعت القهوة أمامه أمسك فؤاد بالحقيبة وفتحها وكان كمال يحتسي القهوة ثم سقط الفنجان من يده وحاول الوقوف ولكنه كان يترنح فاستند على المكتب ينظر إلى فؤاد، وبدأت الرؤية بالتشوُّش حتى سقط مغشيًّا عليه، فضغط الجرس ودخل عم سلامة وبصحبته بعض المُمرِّضين وقاموا بحمل كمال وخرجوا وخرج خلفهم فؤاد والتقى بيوسف الذي كان يقف في الممر وينظر إلى كمال الذي يحمله المُمرِّضون، ويقف خلفه ياسمين وأحمد وشروق ودينا يبتسمون وأمامه فؤاد ليعطي يوسف الأوراق في يده ويخرج الجميع إلى الحديقة ويتجهون إلى بوابة الخروج ولكن حين اقتربوا من البوابة أُغلقت أمامهم وأخذ المُمرِّضون في الالتفاف حولهم والإمساك بهم جميعًا والصياح بجملة "النزلاء بيهربوا"

وعم الصياح والضجيج المكان وأخذ الجميع يحاولون الإفلات من الحراس والعمال والمُمرِّضين، ولكنهم أعطوهم حُقَنًا مخدرة فبدؤوا بالسقوط واحدًا تلو الآخر مغشيًّا عليهم.

***

ترك قطرات الماء تنساب على رأسه وجسده لتغسل همومه وأفكاره المشوَّشة والمتداخلة واستند إلى الحائط ونظر إلى المرآة أمامه وأخذ يتأمل الهالات السوداء أسفل عينيه ويتذكرها ويتذكر لقاءهما وعناقهما وشكل ابتسامتها حين تغلق عينيها، تذكر كل شيء تقريبًا بينهما حتى إنه تذكر ذلك المطعم الذي طالما جلسا هناك ينظران إلى البحر ويحتسون القهوة معًا فحدث نفسه بصوتٍ عالٍ لماذا لا أذهب إلى هناك لعلى أراها من جديد.

ارتدى ملابسه والمعطف الذي كان يرتديه حين يقابلها وأخذ يسير بجوار البحر عدة خطوات ثم وضع يده اليمنى في جيبه وأخرج نصف القلب الذي أهدته إياه وتحرك في اتجاه طاولة يلتف حولها أربعة مقاعد يجلس عليها ثلاثة أشخاص وهناك مقعد فارغ، أخذ يقترب منهم وهو يبتسم فانتصب الجميع حين وصل إلى الطاولة كان الثلاثة أشخاص هم شروق وياسمين وأحمد، قابلوه بابتسامة عريضة وترحيب حار حيث احتضن شروق ومد يده ليلقي التحية على ياسمين ثم نظر إلى أحمد ومد يده إليه فأمسك أحمد بيده واحتضنه في عناق شديد ثم جلسوا إلى الطاولة، كانت الطاولة قريبة من البحر في حديقة صغيرة

تحوي إضاءة خافتة وكانت تقريبًا هي الطاولة الوحيدة، فلم يكن المكان يعج بالأشخاص، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً، وكان اليوم هو أحد أيام الشتاء فكانت الأمطار تهطل على مراحل، ولم يكونوا يكترثون لأمر تلك الأمطار، أشعل يوسف سيجارة وأعطى أُخرى لأحمد وظل الصمت يسيطر على المكان عدة لحظات حتى دخل أحد الأشخاص يرتدي قميصًا أبيض وبنطالًا أسود وربطة عنق سوداء ويحمل في يده دفترًا صغيرًا وقلمًا وبدأ يسأل يوسف عمَّا يود أن يحتسي، فهل يحضر له كوبًا من الشاي يدفئه في تلك الليلة الباردة أم أنه يريد قهوته التي اعتاد أن يشربها على الطاولة نفسها مدة عام كامل، فنظر إليه يوسف وأخبره أنه يريد احتساء قهوة خالية من السكر، فابتعد النادل بعد أن دوَّن ما طلبه يوسف ثم عاد وكأنه نسي شيئًا وبدأ يسأل شروق ثم ياسمين ثم أحمد عمَّا إن كانوا يريدون احتساء شيء آخر أم لا فأجابه الجميع بأنهم لا يريدون شيئًا آخر فرحل.

❊❊❊

كان الجميع يرتدون الملابس الزرقاء ويلتفون حول الطاولة في الحديقة، ومن أطرافها كان هناك طاولة ضخمة يلتف حولها العديد من الأشخاص كما رآها يوسف حين كان يزور دينا، المشهد نفسه تقريبًا، ولكن في تلك المرة كانت دينا تقف إلى جوار هؤلاء الأشخاص وكان هو يجلس إلى جوار شروق وياسمين وأحمد وفؤاد الذي كان يرتدي بدلة سوداء وأخذوا يعيدون الحديث حول المؤامرة التي دبرها كمال

ليوسف، وأخذ يشاهد فؤاد المقطع المصور من الغرفة من هاتف ياسمين وهو يخلع ربطة عنقه، ونظر يوسف إلى أعلى المبنى تحديدًا إلى الشرفة التي تقع في منتصف المبنى من الأعلى، وابتسم إلى الشخص الواقف بها كان ذلك الشخص طويل القامة ويحمل ندبة أعلى حاجبه الأيمن وكان يرتدي بدلة سوداء وفوقها معطف الأطباء الأبيض وقد عُلِّق عليه شعار مصحة الأمل للأمراض النفسية، وأسفل الشعار كُتب: "الدكتور كمال" مدير المصحة، وإلى جانبه يقف شخص آخر يرتدي قميصًا وبنطالًا وفوقهما معطف أطباء ويحمل في يده بعض الأوراق ويقف إلى جواره عم سلامة يرتدي ملابس المُمرِّضين، فنظر إليهما كمال ورحب بالطبيب الجديد:

- أهلًا يا دكتور شادي، أتمنى إنك تبقى مبسوط معانا هنا.

- هما دول كل النزلاء الموجودين يا دكتور كمال؟ يشير إلى الجميع في الحديقة.

- أيوه يا دكتور هما دول، دول أول مجموعة تخوض التجربة الجديدة.

فأشار شادي بيده إلى المجموعة التي تقف حول الطاولة الكبيرة وأخذ يسأل كمال عن أسماء هؤلاء المرضى فأخذ كمال يشير بإصبعه إلى كل منهم وهو يسرد لشادي قصة كل نزيل، فبدأ بأحد المرضى والذي كان بيد واحدة والأخرى مبتورة ويقف إلى جانب دينا حول الطاولة الكبيرة:

- ده حمزة ظابط سابق في الجيش اتصاب في هجمة إرهابية على سينا خسر فيها إيده وخسر كمان أعز أصدقاؤه اللي كان اسمه مراد، حمزة ومراد كانوا قريبين جدًّا من بعض كانوا أصدقاء طفولة وبموت مراد وبعد اللي شافه حمزة اتصاب بصدمة نفسية شديدة اتحولت لبرانويا ومن ساعتها وهو بيتعالج هنا، ودي فريدة هانم واحدة من سيدات الأعمال، مدمنة كحول وبتعاني من اضطراب نفسي أدى للاكتئاب بقالها هنا سنة تقريبًا، ودي إلهام هانم بتعاني من خوف شديد من المجتمع، وصلت لحالة من الهلع والفزع من كل حاجة حواليها، وبتعتبر فريدة صاحبتها من ساعت ما دخلت هنا، وده معتز ممثل مسرح لكنه فشل في تحقيق حلمه في التمثيل فتحول لمختل عقليًّا بيميل ساعات للعنف بس بدأ يتعايش مع المجموعة من ساعت ما بدأنا نطبق عليهم التجربة الجديدة، ودي دينا بتعاني من صدمة وانهيار عصبي نتيجة خيانة جوزها ليها عشان كانت بتحبه جدًّا بس تقدر تقول كده إنها من الحالات اللي خلاص بتتعافى تمامًا، وده أحمد المثقف بتاع المصحة، طالب جامعي بيعاني من هلاوس بصرية الجوسكا بسبب انتحار البنت اللي كان بيحبها، آه صح البنت دي اسمها ريم كانت أخت مراد وانتحرت بسبب استشهاد أخوها، مقدرتش تتحمل الوحدة خصوصًا إن أحمد كان متعدد العلاقات، ودي شروق سندريلا المصحة

- بنت فؤاد صح؟ يقول شادي

- إحنا بعتبرها بنت فؤاد لأنه أكتر شخص قريب منها هنا هو وعم سلامة، شروق بتعاني من انفصام في الشخصية وخوف من الناس بسبب

موت أختها الأصغر منها في حادثة تصادم قدامها، أما ده بقى يا سيدي فهو فؤاد، دكتور نفسي في مصحة الزهور للأمراض النفسية، لكنه كان بيحب مريضة عنده ولما الإدارة اكتشفت الموضوع اترفد من المصحة وجه هنا عشان يتعالج من الصدمة اللي حصلت له وبدأ فعلًا يتعافى بدليل إنه أقنعهم بالقصة وأدى دوره على أكمل وجه، بس مؤخرًا اكتشفنا إنه مريض سرطان ورفض إنه يتعالج منه خارج المصحة عشان يفضل يأدي دوره، أما دي بقى فهي ياسمين، دكتورة ياسمين من أكفأ الدكاترة في المصحة هنا وهي المسؤولة عن حالة شروق وأحمد، وهي كمان صاحبة فكرة مكتب العقارات وإننا نديهم المُهدِّئات على هيئة أقراص للصداع وإننا ندي حرية للاتنين دول بالذات في إنهم يعيشوا الواقع اللي اختاروه واستعانت بمعتز عشان يمثل دور مديرهم في العمل، واطوعت إنها تكون زميلتهم في المكتب، دول تقريبًا كل المرضى اللي هنا، الباقي بيتعافوا تمامًا وبيلعبوا أدوار داخل القصة، أنا لما اشتريت الفيلا دي عشان أعمل فيها المصحة لقيت إنها أنسب مكان أنفذ فيه نظريتي، خصوصًا إنها على البحر وإن مساحتها هتسمح إننا نبني فيها كل المباني اللي هنحتاجها في التجربة، وبصراحة عجبني أوي منظر المركب الغرقان اللي هناك ده، بيتهيألي مش محتاج تعرف حاجة تاني يا دكتور شادي، آه صح ده بجانب إني أنا اللي متولي أمر جلسات العلاج المسائية، ودي فيها فريدة وإلهام وحمزة ومجموعة تانية من المرضى ودي بتكون في المبنى المخصص ليها في الحديقة الخلفية، أي سؤال تاني يا دكتور شادي؟؟

- لا كده تمام، أتمنى أكون عند حسن ظن حضرتك، بس فاضل حاجة واحدة..

- إيه هي؟

- يوسف!

- يوسف ده أشطر دكتور اشتغل في المصحة هنا صحيح إنه حديث التخرج بس قدر يقنع الجميع إنه واحد منهم وقدر يكسب حب كل الموجودين هنا، لكن الأصعب كانت دينا؛ عشان كنا قررنا نعمل المؤامرة ونخليها هي تقنعه إنه مريض عشان تبقى أكتر واحدة مصدقة وجوده داخل المصحة، يوسف يعتبر في حد ذاته نظرية؛ لأنه مقتنع تمامًا إنهم عاقلين وإنهم ممكن يتعالجوا بسهولة لو كل واحد فيهم واجه مشكلته من الأول وعاش جوه قصة واتعرف على مشاكل اللي حواليه؛ لأن العالم سلبي ومتخاذل ولأن الحياة مبتديش فرصة لحد إنه يعيش الحياة اللي اتمناها، وجود الأشخاص دي مع بعض في قصة واحدة ده في حد ذاته نجاح ومن بكرة إن شاء الله هنبدأ في المرحلة التانية من التجربة.

- بس ازاي يوسف قدر يحقق كل ده بالرغم من إنه حديث التخرج؟!

- يوسف يا شادي بيعاني من اضطراب نفسي وده ساعده إنه يندمج وسطهم بسهولة، عمومًا يا شادي كل البشر مرضى بس في مننا اللي حياته وقفت عند المرض ده وفي اللي مكمل رغم عقده ومرضه زينا كده، أما يوسف فهو زي ما قولتلك بالظبط نظرية لوحده، أو زي ما عم سلامة بيقول عليه "عازف الليل"

***

- هؤلاء الذين اســتســلموا للعالم ولقَّبهم المجتمع بالمرضى النفسيين

لو نظرنا إليهم بتمعُّن فســنجد أنهم أكثر الناس عقلًا، فليس هناك عاقل يســتطيع التعايش مع الواقع ويظل كما هو، فتحية تقدير إلى هؤلاء المُهمَّشــين والمُنعزلين عن العالم.

علي صالح